المكتبة الإعلامية

تحليل الخطاب الإعلامي

أطر نظرية ونماذج تطبيقية

د. محمد شومان

الدار المصرية اللبنانية

تحليل الخطاب الإعلامي

أطر نظرية ونماذج تطبيقية

الدكتور محمد شومان

الدار المصرية اللبنانية

16 ش عبد الخالق ثروت - القاهرة

تليفون: 3910250 - فاكس: 3909618

ص.ب: 2022 - القاهرة

e-mail: info@almasriah.com

www.almasriah.com

المدير العام: **محمد رشاد**

المشرف الفني: **محمد حجي**

المكتبة الإعلامية

هيئة التحرير

أ.د. منى سعيد الحديدي

أ.د. حسن عماد مكاوي

رقم الإيداع: 2007/23482

الترقيم الدولي: 977-427-096-7

الطبعة الأولى: محرم 1428 هـ - يناير 2007 م

تحليل الخطاب الإعلامي

أطر نظرية ونماذج تطبيقية

الدكتور محمد شومان

الدار المصرية اللبنانية







إهـــــداء

إلى جدى لأمى..

عبد الرحمن الصياد.. رحمة الله عليه..

من شيوخ الأزهر..

كان من تلاميذ محمد عبده..

وظل مخلصًا لمدرسته..

ومات قبل مولدى بسنين طويلة..

لكنى التقيته وأحببته عبر ما تبقى من مكتبته..

وعبر تلاميذه الذين كانوا أساتذة لى.

المؤلف



من منطلق حرص الدار المصرية اللبنانية على إصدار سلاسل متخصصة في مختلف العلوم والفنون والآداب، تأتي هذه السلسلة (المكتبة الإعلامية) لتتكامل مع سلاسل أخرى أصدرتها الدار في العلوم التربوية والدينية والأدبية والفكرية، بما يسمح بسهولة متابعة الإنتاج الفكري الجديد لكافة الدارسين والممارسين.

وتهدف هذه السلسلة إلى تحقيق الأغراض التالية:

١- إثراء المكتبة العربية في مجالات علوم الاتصال وفنون الإعلام، حيث شهدت هذه العلوم تطورات كبيرة طوال القرن العشرين، وأصبح الإعلام ظاهرة مؤثرة في جميع الأنشطة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

٢- ظهور عديد من كليات وأقسام الإعلام في الجامعات المصرية والعربية، وحاجة هذه الأقسام إلى متابعة الإنتاج الفكري في مجالات الإعلام الذي يسهم في تنظير فروع علم الاتصال من منظور عربي.

٣- تزويد الممارسين للعمل الإعلامي بالمعلومات الجديدة في مجالات التكنولوجيا والإنتاج الإعلامي، وتأثير الرسائل الإعلامية والإعلانية على الجماهير المستهدفة.

٤- نشر الثقافة الإعلامية من خلال التأليف والترجمة ونشر الرسائل المتميزة للماجستير والدكتوراه، لأهمية هذه الثقافة التي أصبحت ضرورة لا غنى عنها، لتيسير الانتفاع بمصادر المعلومات والإعلام المتعددة في العصر الحديث.

الناشر



تقديم

يأتي هذا الكتاب "تحليل الخطاب الإعلامي: أطر نظرية ونماذج تطبيقية" للدكتور/ محمد شومان إضافة متميزة لإصدارات سلسلة مكتبة الإعلام بالدار المصرية اللبنانية للنشر والتوزيع في إطار سعيها المستمر بتوفير مزيد من المراجع والدراسات العربية التي تجمع بين الجوانب النظرية والتطبيقية بما يفيد الدارسين والباحثين للصحافة وعلوم الاتصال وعموم الإعلام والممارسين الإعلاميين.

ويأتي هذا المؤلف متسمًا بالموضوعية والعمق نتيجة اهتمام مؤلفه منذ أكثر من ربع قرن بهذا الموضوع "تحليل الخطاب الإعلامي" مقدمًا فيه رسالة للماجستير.

وقد عرض د. محمد شومان على مدى فصول الكتاب الثلاث لنقاط رئيسية مفهوم تحليل الخطاب، مدارس تحليل الخطاب، وأتبع ذلك بممارسات ونماذج تطبيقية على الخطاب العربي في الصحافة المصرية في الفترة من ١٩٢٤ حتى ١٩٣٩ ويتميز الكتاب بالتكامل والمنهجية والتسلسل المنطقي ودقة التعبير وسلامة اللغة وتقسيم الموضوع إلى جزئيات واستخدام العناوين الفرعية الجانبية بما ييسر عملية الاستيعاب، هذا بالإضافة إلى شمول الكتاب على عديد من المصطلحات الأجنبية وتعريبها وتقديم النماذج والممارسات البحثية في ملاحق الكتاب.

هذا بالإضافة إلى شمول خاتمة الكتاب على موقف المؤلف في إشكاليات تحليل الخطاب الإعلامي وتحديده لنقاط الاتفاق والاختلاف فيما يخص مجال تحليل الخطاب الإعلامي مما جعل من هذا الكتاب إضافة علمية جادة للمكتبة الإعلامية العربية بشكل عام وللمهتمين بمجال الصحافة نظريًا وعمليًا بشكل خاص

والله ولي التوفيق،

هيئة التحرير



مقدمة المؤلف

هذا الكتاب قصة طويلة من المعاناة والقلق والحب، فقد بدأت في الاهتمام بتحليل الخطاب الإعلامي منذ نحو ربع قرن، وتحديدًا في منتصف الثمانينيات من القرن العشرين حين كنت أعد رسالة الماجستير في قسم الصحافة بكلية الإعلام جامعة القاهرة، وفي هذه السنوات، التي تبدو لي الآن بعيدة قريبة كان من النادر استخدام تحليل الخطاب في الدراسات الإعلامية المصرية، وكان مفهوم الخطاب ذاته غامضًا بالنسبة لي، ومع ذلك حاولت التعرف على مفهوم الخطاب وتحليل الخطاب واستخداماته.

وشرعت في برنامج مكثف من القراءة والحمد لله، ولكن كلما أنجزت بعض القراءات وتخيلت أنني أقترب من فهم مجال الخطاب وتحليل الخطاب - خاصة تحليل الخطاب الإعلامي - أكتشف أنني في حاجة إلى مزيد من الفهم والدراسة، وكلما تقدمت خطوات أكتشف أن هناك غموضًا وبيانات أهم تحتاج إلى مزيد من الدراسة والبحث.

وانتهيت من إعداد رسالتي للماجستير مستخدمًا بعض أدوات تحليل الخطاب بطريقة بدائية، وربما ساذجة، ولكنها كانت من المحاولات المصرية الأولى في حقل تحليل الخطاب الإعلامي، وقد نالت الرسالة كثيرًا من الإشادة والتقدير، ومع ذلك لم أكن راضيًا أو مطمئنًا لما توصلت إليه. لذلك واصلت اهتمامي بمجال تحليل الخطاب، لكن الحقيقة أن هذا الاهتمام لم يكن منتظمًا أو متواصلاً، فكثيرًا ما كنت أنشغل عن مجال تحليل الخطاب بموضوعات وقضايا أخرى، ومع ذلك لم يختف اهتمامي بمتابعة مجال تحليل الخطاب، وبدأ يحدو داخلي أمل وهدف أن أكتب في هذا المجال الثري والجديد.

وأحس أن الكتابة في تحليل الخطاب، خاصة تحليل الخطاب الإعلامي، كان

أمل أو حلمًا أو وهمًا، فالموضوع أصلاً غامض، وملتبس، وتدور حوله معارك ونقاشات فكرية ومنهجية صاخبة، ورغم كثرة ما يكتب إلا أنه لا يوجد اتفاق على شيء محدد بشأن الخطاب وتحليل الخطاب، وهل هو نظرية أم منهج أم أداة للتحليل، كما أن مدارس تحليل الخطاب ترتبط بتيارات ومدارس فكرية وفلسفية لا يوجد بينها اتفاق. ومع ذلك من الضروري الاطلاع عليها ودراستها حتى يمكن فهم واستيعاب مدارس تحليل الخطاب ثم بعد هذه الخطوة لابد للباحث أن يستوعب بوعي ما يقرأ ويحدد منه موقفاً ثم تأتي بعد ذلك خطوة تطبيق الإطار النظري والمنهجي الذي اقتنع به أو ألزم نفسه به في تحليل مادة الخطاب الإعلامي.

ومثل هذا النهج يدفع الباحث من جديد إلى الدخول في عالم من الجدل الفكري الصاخب و كثير والثرى بشأن حدود الخطاب وعلاقته بالواقع وبالنصوص المقروءة والمسموعة والمشاهدة – والصور والرموز، فضلا عن طبيعة التحليل وحدوده وعلاقته بالتأويل.

هذه الإشكاليات حالت طويلاً بيني وبين الكتابة النظرية والمنهجية عن تحليل الخطاب الإعلامي رغم أني استخدمته في العديد من البحوث المنشورة إلى أن شاركت عام ٢٠٠٤ في المؤتمر العلمي العاشر لتحليل الخطاب.

وشاركت في المؤتمر ببحث تحت عنوان " إشكاليات تحليل الخطاب في الدراسات الإعلامية العربية – الدراسات المصرية نموذجا " نوفمبر ٢٠٠٤، رصدت فيه الملامح الرئيسية لدروس تحليل الخطاب بهدف الكشف عن أوجه الاتفاق والاختلاف بينها من النواحي النظرية والمنهجية وتأثير ذلك على البحوث العربية في مجال تحليل الخطاب الإعلامي.

ورغم صعوبة وجدة البحث إلا أن ترحيب ونقد الزملاء والأساتذة المشاركين في المؤتمر – خاصة الزملاء من فرنسا والجزائر والمغرب وتونس – قد شجعني على

مواصفة وتطوير البحث، وخاصة أن كثيراً منهم من يتابعون المدرسة الفرنسية في تحليل الخطاب لم يكن على دراية - مثل تماماً - بمدارس تحليل الخطاب الألمانية والاسكندنافية.

القصد أنني تشجعت على تأليف هذا الكتاب الذي اعتبر رحلة معي في محاولة دائمة للتعلم والدراسة. وأعتقد أن هذا الكتاب سيظل هكذا محاولة للتعلم والدراسة، ومن ثمّ سأرحب دائماً بالملاحظات النقدية من القراء المتخصصين أو غير المتخصصين، لأن مجالات تحليل الخطاب أقرب إلى حقل ألغام متخم بالإشكاليات والموضوعات المعقدة.

والهدف الذي سعيت إلى تحقيقه في هذا الكتاب أن أقدم استعراضاً نقدياً شاملاً لمدارس واتجاهات تحليل الخطاب ينتهي باستخلاصات عامة تُعبر عن موقفي في إشكاليات تحليل الخطاب الإعلامي، آثرت أن أسجلها في خاتمة الكتاب في شكل استخلاصات عامة قابلة للنقاش والتطوير، إذ إنني على يقين أن كل ما أقدمه هنا هو عبارة عن خطاب مفتوح قابل للنقد والتعديل والتطوير.

وحتى لا يبدو عملاً نظرياً مجرداً، فضلت أن أزود هذا الكتاب - الذي ربما يكون الأول من نوعه في المكتبة العربية - ببعض من تقدم نماذج وتمارين بحثية تطبيقية لعملية تحليل الخطاب الإعلامي، وأعتقد أن قراءة هذه النماذج أمر لا غنى عنه، بل مُكمّل لفهم واستيعاب مدارس واتجاهات تحليل الخطاب والإشكاليات النظرية المرتبطة بكل منها. وقد أضيف للقارئ العربي الكريم بقراءة بعض أبحاثي المنشورة حول تحليل الخطاب بموقعي على الإنترنت (www.drshowman.com)، إذ ربما يجد فيها بعض التطبيقات لعملية تحليل الخطاب.

وتنطلق رؤيتي النظرية في هذا الكتاب من حقيقة التداخل والتكامل المنهجي بين العلوم والتخصصات التي استخدمت مفهوم الخطاب، وعمليات تحليل

خطاب يؤطر فيه الخطاب الإعلامي في المحطة التاريخية والمعرفية المعاصرة، تتجاوز مصاف التقدم النظري المعرفي، وتنحو باتجاه الجمع والتأليف بين العديد من المنظورات والرؤى الفلسفية والنظرية، والمدارس الفكرية، انطلاقًا من أن التغيير المستمر والنسبي هو الحقيقة الثابتة في إدراكنا للواقع وفي حدود وشروط العلم بين وظيفته.

أما منهجي في عرض وتحليل مدارس واتجاهات تحليل الخطاب فيقوم على التحليل النقدي المقارن لاتجاهات ومدارس تحليل الخطاب، مع الحرص على رد وتأصيل مفاهيم وإشكاليات تحليل الخطاب إلى أصولها النظرية، ومن ثمّ التعريف بالجذور الفلسفية والمنطلقات النظرية لأصحاب الاتجاهات والمدارس المختلفة في تحليل الخطاب.

ويعكس تقسيم الكتاب رؤيتي النظرية ومنهجي في التناول حيث قسمت الكتاب إلى ثلاثة فصول، في الفصل الأول تناولتُ بالنقاش مفاهيم الخطاب وتحليل الخطاب والإشكاليات التي تثيرها، ثم أوضحت بعض الأمور الخاصة بمنهجي في التناول. ثم عرضتُ في الفصل الثاني أبرز وأهم مدارس واتجاهات تحليل الخطاب بدءًا من مدارس التحليل اللغوي وانتهاءً بالتحليل النقدي، مرورًا باستعراض سريع لمساهمات الرائد ميشيل فوكو في مجال تحليل الخطاب، إضافة إلى التحليل السيميولوجي للخطاب الإعلامي وتحليل المحادثة، والمدرسة الألمانية في تحليل الخطاب.

وعبر هذه الرحلة السريعة تناولت مساهمات فان دايك Van Dijk، والتي طور خلالها منهج تحليل الخطاب الاجتماعي الإدراكي، كما اعتمدتُ على مساهمات باحثين من دول اسكندنافية، وأعتقد أنني منحتُ أعمال ميشيل فوكو وفان دايك وفيركلاو Fairclough كثيرًا من الاهتمام نظرًا لأهمية مساهمات كل منهم في مجال تحليل الخطاب.

أما الفصل الثالث فكان بمثابة ملاحق تتضمن نماذج وممارسات بحثية تطبيقية في مجال تحليل الخطاب الإعلامي، وجاءت الخاتمة في شكل نتائج واستخلاصات عامة بشأن نقاط الاتفاق والاختلاف أو ما يمكن وصفه تحديدًا بالتناص بين هذه المدارس في مجال تحليل الخطاب كي تقدمّ بعض التوصيات التي تعبر عن رؤيتي الخاصة في مجال تحليل الخطاب الإعلامي، خاصة فيما يتصل بالدراسات الإعلامية في مصر

المؤلف



تحليل الخطاب (إشكاليات نظرية ومنهجية)

ارتبطت نشأة وتطور بحوث ودراسات الإعلام في العشرينيات من القرن الماضي بالنموذجين الوضعي والسلوكي positivist and behavioral paradigms، فقد استمد المتخصصون تحديد الكثير من منطلقاته ومفاهيمه وأطره النظرية والمنهجية من هذين النموذجين. في هذا الإطار ركزت بحوث الإعلام ومازال على تأثير وسائل الإعلام في الجمهور، اعتماداً على ما يعرف بدراسات الجمهور، وانطلق إلى حد كبير دراسة مضمون وشكل الرسالة الإعلامية التي يفترض أنها تحدث التأثير المطلوب أو المرغوب من وجهة نظر المرسل أو القائم بالاتصال سواء كان شخصاً أو مؤسسة إعلامية.

وحين عمدت البحوث لأهمية دراسة شكل ومضمون الرسالة الإعلامية لم تعرف الدراسات الإعلامية سوى التحليل الكمي لمضمون أو محتوى الرسالة الإعلامية، والذي ذاع صيته بفضل مقال بيرلسون Berelson الشهير، والذي نشره عام ١٩٥٢ بعنوان التحليل الكمي للمحتوى في أبحاث الاتصال. واستناداً إلى مساهمات بيرلسون وآخرون سادت تقاليد التحليل الكمي الدراسات الإعلامية، وأصبحت جزءاً من التقاليد البحثية في حقل الدراسات الإعلامية، بينما اختفت أو غُيِّبت الدراسات الكيفية واتهمت بالتحيز والبعد عن الموضوعية. ويرصد تومبكنس Tompkins استمرار هذه الظاهرة في أقسام وكليات الإعلام الأمريكية ومجلات العلمية حيث قام بتحليل ملخصات البحوث المنشورة في مجلات الإعلامية الأمريكية في الفترة من ١٩٨٨ - ١٩٩٤، ووجد نسبة محدودة فقط استخدمت مناهج بحوث كيفية، وحصر

بوميكنس ذلك في ضوء عاملين هما الاعتقاد السائد بين الباحثين بأن المجلات العلمية لا تنشر البحوث الكيفية بالإضافة إلى نقص التدريب على تحليل المضمون الكيفي (Tompkins, 1994, PP. 44-50).

لكن يمكن إضافة عامل ثالث لتحليل بوميكنس يتمثل في قلة الاهتمام بدراسة مضامين الرسائل الإعلامية والذي ارتبط بنشأة تخصص الإعلام في إطار الوضعية والسلوكية من هنا يذكر لنجر Langer عام ١٩٩٨ أن الرسائل في النصوص الإعلامية لم تحظ فعلياً بالاهتمام الأول في مجال بحوث الإعلام خلال الخمسة عشرة إلى العشرين سنة الأخيرة وظهرت كثير من البحوث في التسعينيات تركز على عمليات إنتاج واستقبال الأفراد أو المجموعات للرسائل الإعلامية، وذلك رغم أن الأفراد متلقين يفسرون النصوص الإعلامية وفق خبراتهم الشخصية وخبراتهم وتجاربهم الذاتية، إلا أن النص ذاته مؤثرًا حاسمًا على تفسيراتهم (Langer,1998).

على أن سيادة وهيمنة مناهج وأدوات التحليل الكمي لم تمنع ظهور كثير من الانتقادات، التي انصبت على شكلية وعدم موضوعية فئات تحليل المضمون الكمي، التي تبدو بدون أساس علمي الدقة والموضوعية وتتجه إلى تفتيت النص وتحويله إلى مجرد أرقام وبيانات إحصائية لا تكشف عن معنى النص أو المعاني التي يحملها إذ إن التحليل الكمي عكس التحليل الكيفي يهمل سياق النص وعلاقات القوى داخله ومنظور الفاعل، فضلاً عن عدم الاكتراث بالمعاني الضمنية أو غير الظاهرة في النص (عبد الرحمن وآخرون،١٩٨٣) من هنا بدأت تظهر على استحياء محاولات لاستخدام مناهج وأدوات التحليل الكيفي في دراسة النصوص الإعلامية وقد اتسمت في البداية بالتردد والخلط وعدم الوضوح أو التكامل المنهجي والإجرائي لكنها شكلت نوعًا من التوجه والتحدي للتقاليد السائدة في مجال الدراسات الإعلامية (Curtin, 1996).

وفي مطلع التسعينيات من القرن الماضي اتجه عدد من الباحثين الاسكندنافيين في مجال الإعلام إلى تأييد استخدام التحليل الكيفي للمحتوى من منظور

أيديولوجي، ويُعرف هذا التوجه بالاتجاه الإنساني humanistic trend، والذي ركز على علاقات القوة التي تحاول النصوص الإعلامية التعبير عنها، كما سعى لتطوير أدوات التحليل الكيفي مستفيداً من التطور الذي تحقق في مجال الدراسات اللغوية والسيميولوجية (العلاماتية)، وتحليل النص. وكان من أبرز ممثلي هذا الاتجاه الباحث الدانماركي بيتر لارسن Better Larsen، والذي أكد أن التحليل الكيفي ليس غاية في حد ذاته.

ووفقاً لما ذكره مايرينج Mayring فإن التحليل الكيفي للمحتوى يقوم على الفحص الدقيق لمصادر المادة قبل تحليلها، وعلى الملاحظة الصريحة والفهم المتأني للذين يقومون بالتحليل، مع الاهتمام أيضاً بوجهات نظر الآخرين، بالإضافة إلى نقل نتائج إعادة التفسير، ويعتبر المصطلحات السيميولوجية والنظرية البراجماتية للمعنى وقواعد التفسير على أساس التحليل البنيوي للنص من أدوات عملية التحليل الكيفي والتي تتضمن النماذج الأساسية لتلخيص وشرح وهيكلة المادة محل الدراسة (Howley 1999- Langer, 1998).

لكن هذه الأدوات المنهجية لم تكن كافية لدراسات الرسائل أو النصوص الإعلامية في علاقاتها المتشابكة وتفاعلها مع الرسائل السابقة ومع بنية المجتمع والقوى المهيمنة عليه. ومن هنا فقد تطورت محاولات التحليل الكيفي في الثمانينيات من القرن الماضي باتجاه تبني منهجية تحليل الخطاب، وتحليل الخطاب النقدي، وقد تأثرت هذه المحاولات بهيمنة اتجاه ما بعد البنيوية. ورغم عدم الاتفاق على مفهوم الخطاب إلا أنه أصبح يستخدم على نطاق واسع في تحليل النصوص الإعلامية، وقد نشأ مفهوم الخطاب في إطار دراسات اللغة والألسنية أو علم اللغة الحديث، رغم أن علماء الألسنية الأوائل أمثال: سوسير Saussure (١٨٥٧، ١٩١٣)، وهيلمسلف Hlemslew (١٨٩٩، ١٩٦٥)، وجاكوبسون Jakobson وغيرهم لم يناقشوا موضوع الخطاب. ويُعد كان بيسنس Boyssens أول من طرح مسألة الخطاب في الدراسات الألسنية عام ١٩٤٣، ولكن المدرسة الألسنية الكبيرة في مسائل الخطاب

جاءت على يد بنفنست Benveniste ١٩٠٢-١٩٧٦. وفي الوقت الحالي هناك توجه كامن في الغرب كي يحول البنيوية نحو ما يسمى تحليل الخطاب، ويظهر في أشكال مختلفة يمكن تصنيفها إلى أربع منظومات كبرى هي: المنظومة المنطوقية، والمنظومة الحجاجية، والمنظومة السردية، والمنظومة الخطابية. وقد ارتبطت الأعمال الأولى للبنيويين الفرنسيين أمثال كلود ليفي ستراوس، ورولان بارت، وجاك لاكان وميشيل فوكو بهذه الأشكال من تحليل الخطاب (بعورة، ٢٠٠٥).

ويمكن القول أن السيميولوجيا (العلاماتية) قد سادت في الستينات وأوائل السبعينيات حقل تحليل النصوص الإعلامية، ووفرت للباحثين أسلوبًا لتحليل المعنى، بينما هيمن التحليل الأيديولوجي على هذا الحقل في أواخر السبعينيات وبداية الثمانينات، وزود الباحثين بمنهج للتفكير في العلاقات بين المعنى والبنية الاجتماعية، ومنذ منتصف الثمانينيات وحتى الآن أصبحت نظرية الخطاب هي التي تقود عمليات تحليل النصوص الإعلامية، ولقد دفعت نظرية الخطاب الباحثين إلى إعادة التفكير في العلاقة بين المعنى والبنية الاجتماعية من خلال التركيز على السلطة من داخل نظام المعنى وليس من خارجه، فنظم المعنى نفسها تعبير سلطوي لا تظهر بصورة كنظم، مثل بنية اللغة، بل من خلال ممارسات ذات دلالة، إنها ليست ببساطة المعاني المرتبطة بممارسات الاجتماعية - كما يقول ألتوسير في نظرية الأيديولوجيا - بل إن المعنى والممارسة لا يمكن الفصل بينهما، فهي مترابطان، أي أن المعنى هو الممارسة في نظرية الخطاب (Tolson, 1996, p.196).

إذن ما هو الخطاب؟ وماذا يعني تحليل الخطاب؟ وما هي أهدافه؟ وما أهم أدوات تحليل الخطاب؟ وهل الخطاب أداة للتحليل أم نظرية تفسيرية؟ وأخيرًا هل هو أداة عابرة أم أداة ومنهج يرتبط بنظرية عامة أو نظريات في إدراك وتفسير الواقع؟ كل هذه الأسئلة تعتبر مرتبطة أشد الارتباط، ويوجد لها عدد متعدد ومتنوع من الإجابات. في هذا السياق يقول فان دايك Van Dijk أحد رواد تحليل الخطاب: ما هو الخطاب؟ ويجيب أنه سؤال بسيط في ظاهره، معقد في حقيقته

ويتابع فان ديك في مقدمة كتاب له أن المسجلة صفحة بأكملها، التي يتكون منها الكتاب المؤلف من مجلدين عن موضوع «الخطاب»، هو عبارة عن إجابة تفصيلية عن سؤال: ما هو الخطاب؟ (Nelson Phillips and Cynthia Hardy, 2002)

إن الخطاب ليس هو اللغة، كما توجد اختلافات عميقة بين الخطاب والنص وذلك رغم شأنهما التقليدية في الدراسات اللغوية. إن الخطاب والنص يختلفان في البناء والوظيفة كوحدات اللغة الكبرى، كما نظهر في نفس الوقت تقريبًا، لذلك هناك من يعتبرهما متطابقين، لكن لا شك في وجود فروق كبيرة بينهما على مستوى المفاهيم والمناهج والوظائف. فالخطاب يركز على اللغة والمجتمع (Tankard,1994) بالإضافة إلى أن الخطاب متحرك ومتغير، وبه جمهور. وهدف وقصد معين، ويتشكل من مجموعة من النصوص والممارسات الاجتماعية.

إن الخطاب في كلمات بسيطة هو طريقة معينة للتحدث عن الواقع وفهمه، كما أنه مجموعة من النصوص والممارسات الخاصة بإنتاج النصوص وانتشارها واستقبالها مما يؤدي إلى إنشاء أو فهم الواقع الاجتماعي.

ويشير الخطاب - كما يقول فير كلاو Fairclough - إلى استخدام اللغة حديثًا وكتابةً، كما يتضمن أنواعًا أخرى من الأنشطة العلاماتية مثل الصور المرئية - الصور الفوتوغرافية، الأفلام، الفيديو، الرسوم البيانية - والاتصال غير الشفوي مثل حركات الرأس أو الأيدي... إلخ. ويخلص إلى أن الخطاب هو أحد أشكال الممارسة الاجتماعية، ثم يستخدم فيركلاو الخطاب بمعنى أخص حين يقول: "الخطاب هو اللغة المستخدمة لتمثيل ممارسة اجتماعية محددة من وجهة نظر معينة" وتنتمي الخطابات بصفة عامة إلى المعرفة، وإلى بناء المعرفة (Fairclough,1995, pp. 53-56)

إن الخطاب هو كل الأشياء التي تكوّن العالم الاجتماعي، بما في ذلك هوياتنا، أو بعبارة أخرى الخطاب هو واقعنا الاجتماعي وإدراك هويتنا، أي أنه يقويه خطاب

لا يوجد واقع اجتماعي، وبدون فهم الخطاب لا يمكن أن نفهم واقعنا أو تجاربنا أو أنفسنا. ومن ثمّ تبدو أهمية تحليل الخطاب، فمن خلال منهجية تحليل الخطاب نستطيع تفسير الواقع الاجتماعي.

وحتى نستكمل فهم المقصود بالخطاب تحديدًا، يجب أن نسلم بحقيقة عدم وجود خطاب واحد أو خطاب وحيد فهناك عدد من الخطابات المتصارعة وعبر التكاملة والمتنافسة والمتعارضة، وعبر صراع هذه الخطابات يتشكل الواقع الاجتماعي وتتشكل هوياتنا. من زاوية أخرى فإن تحليل الخطاب يمثل إطارًا نظريًا لمراقبة الواقع عبر إجراء دراسات تطبيقية (Nelson Phillips Cynthia Hardy, 2002)

غير أن فيركلاف وغيره من الباحثين في حقل تحليل الخطاب النقدي قد توسعوا في تعريفاتهم واستخداماتهم لمفهوم الخطاب بحيث غدا عندهم يشمل كل شيء، وتقع تحت مظلته تخصصات ومجالات واسعة في العلوم الاجتماعية ومن منظور نقدي، وقد ترافق ذلك مع التوسع في استخدام تحليل الخطاب النقدي عبر تخصصات مختلفة ولأغراض متباينة، مع غياب التعاون بين هذه التخصصات، مما أدى إلى عدم الاتفاق على ما هو تحليل الخطاب، وكيف يمكن تطبيقه، وما هي حدوده وإمكانياته، ومثل هذه الحالة لا تعنى الكثير من الباحثين حيث يرى البعض أن كثيرًا من المفاهيم والمقاربات التي تستخدم في العلوم الاجتماعية على نطاق واسع مثل مفاهيم الأيديولوجية، والوعي، والطبقة المتوسطة لا يوجد حولها اتفاق (Tankard, 1994) غير أن حالة عدم الاتفاق حول مفهوم الخطاب، والتي تنتشر في شتى مجالات العلوم الاجتماعية، ترتبط بغموض وحيرة قل أن نجد لها مثيلاً في مفاهيم العلوم الاجتماعية.

ولعل ما يزيد الأمر غموضًا وارتباكًا تلك المفارقة الغريبة بين غموض مفهوم الخطاب، وانتشار استخدامه على نطاق واسع في شتى ميادين وتخصصات العلوم الاجتماعية في السنوات العشرين الأخيرة، بل واستخدامه في لغة السياسة والصحافة اليومية

إن المفارقة بين انتشار استخدام الخطاب وبين غموض مفهوم الخطاب تمثل أول إشكالية تواجه دراسات وبحوث تحليل الخطاب النظرية والتطبيقية، وذلك ضمن مجموعة من الإشكاليات المتعلقة المترابطة. أضيف إليها الإشكالية الثانية التي تتعلق بالاختلاف والتباين الشديدين حول الطبيعة المعرفية للخطاب، فهل هو نظرية أم منهج في التحليل، حيث استخدمه بعض الباحثين والمهتمين على أنه نظرية للتفسير بينما استخدمه آخرون باعتباره منهجًا في التحليل، ولا يقتصر الخلاف عند هذا الحد، بل يتجاوزه إلى صلاحية ومشروعية استخدامه وعلاقاته بالبناء الاجتماعي.

إن تحليل الخطاب يمثل منهجًا Methodology وليس فقط طريقة لدراسة Method، ويستند هذا المنهج على نظرة تفسيرية جتماعية للواقع الاجتماعي. ويشترك مناهج تحليل الخطاب في اهتمامها بالآثار التفسيرية للغة، وتعتبر أسلوبًا تفسيريًا للتحليل. وفي هذا الصدد، لا يتضمن تحليل الخطاب مجرد مجموعة من التقنيات لإجراء تحليلات كيفية Qualitative للنصوص ثم يتضمن أيضًا مجموعة من الافتراضات بشأن الآثار التفسيرية Constructive للخطاب.

خلاصة القول أن تحليل الخطاب لا يتعلق فقط بأسلوب التحليل، بل إنه يشكل منظورًا بشأن طبيعة اللغة وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية والواقع الاجتماعي. وبعبارة أكثر تحديدًا، فإن تحليل الخطاب عبارة عن مجموعة متصلة من المناهج لدراسة الخطاب، وهذه المناهج لا يترتب عليها مجرد ممارسات لجمع البيانات وتحليلها، وإنما يترتب عليها أيضًا مجموعة من الافتراضات النظرية وما وراء النظرية.

ويشترك تحليل الخطاب مع كافة المناهج الكيفية Qualitative في الاهتمام بما تحمله الحياة الاجتماعية من معاني. ويكون تحليل الخطاب يحاول تقديم استجواب أكثر عمقًا لتوضيح عدم الأمن والموضوع للمعنى. فالمناهج الكيفية التقليدية كثيرًا ما تفترض وجود عالم اجتماعي، ثم تحاول فهم معنى ذلك العالم بالنسبة للمشاركين (عينة البحث)، بينما يحاول تحليل الخطاب استكشاف كيف تم إنشاء الأفكار

والأشياء التي تسكن العالم، وكيف يتم الاحتفاظ بتلك الأفكار والأشياء وإقرارها في مكانها على مر الزمان.

وبينما تحاول المناهج الكيفية الأخرى على فهم أو تفسير الواقع الاجتماعي القائم، يحاول تحليل الخطاب التعرف على كيف يتم إنتاج هذا الواقع الاجتماعي. وهذه هي أهم مساهمة من جانب تحليل الخطاب، حيث يفحص كيف تقوم اللغة ببناء الظواهر، وليس كيف تقوم اللغة بعكس وإظهار الظواهر. بعبارة أخرى، ينظر منهج تحليل الخطاب إلى الخطاب باعتباره مكوِّنًا للعالم الاجتماعي، وليس طريقًا للوصول إلى العالم الاجتماعي - ويعني ذلك في تحليل الخطاب أنه لا يمكن التعرف على العالم منفصلاً عن الخطاب.

وهكذا، يتميز تحليل الخطاب بالتزامه بنظرة تفسيرية Constructivist جوهرية مع محاولته استكشاف العلاقات بين النص والخطاب والسياق. ورغم اختلاف النصوص في درجة مرجعها للنص والسياق، يفهم في تحليل الخطاب أنه يستحيل فصل الخطاب عن سياقه الأوسع نطاقًا، ويستخدم تحليل الخطاب تقنيات مختلفة لتحليل النصوص من أجل اكتشاف أدلة تشير إلى الخطابات التي تنبع منها تلك النصوص.

ومن هذه الزاوية يعتبر تحليل الخطاب مختلفًا عن الأشكال الأخرى للبحث الكيفي. على سبيل المثال، تقوم المناهج الأخرى مثل التحليل الروائي والتحليل المحادثي Conversational بدراسة النص أو الحديث. وتأخذ تلك المناهج الأخرى السياق في الاعتبار لتأكيد المعنى، ولكنها لا تتطرق عادة للخطابات الأوسع نطاقًا والمجموعات المتراكمة من النصوص التي تكوِّن تلك الخطابات. ورغم اهتمام تلك المناهج بكيفية تأويل الروايات والمحادثات، إلا أنها تولي اهتمامًا أقل بتفسير الواقع الاجتماعي الأوسع نطاقًا. وبالمثل، كثيرًا ما تهدف الدراسات الإثنوغرافية ethnographies (انظر الفصل الثاني) إلى كشف معنى اجتماعي معين بالنسبة

مشاركين (أي عينة البحث)، ولكنها تكون أقل اهتمامًا بكيفية ظهور هذا الواقع الاجتماعي للوجود من خلال الآثار التعبيرية للخطابات المختلفة والنصوص المتعلقة بها (Nelson Phillips & Cynthia Hardy, 2002).

أما الإشكالية الثالثة التي تواجه الباحثين في مجال تحليل الخطاب فترتبط بالاختلاف حول طريقة استخدام تحليل الخطاب والإجراءات المتبعة في تحليل المادة العلمية التي تمثل مجال عمل أصحاب الاختصاصات المختلفة في العلوم الاجتماعية، فالإجراءات التي يتبعها محللو الإدارة لتحليل خطاب الإدارة تختلف مثلاً عن تحليل خطاب الدردشة عبر الإنترنت، كما تختلف ولاشك عن تحليل علم النفس الخطابي، ويبدو الاختلاف بصورة أوضح في تحليل الخطاب الإعلامي، إذ إن الخطاب الإعلامي المقروء يختلف في طريقة تحليله عن الخطاب الإعلامي المرئي، وكذلك عن الخطاب الإعلامي المسموع، رغم أننا نجد أن هناك مناهج تأويلية وتفسيرية وكيفية وكمية.

ولتوضيح ذلك تجدر الإشارة إلى أن بعض المناهج الكيفية التقليدية يمكن استخدامها في تحليل الخطاب فعلى سبيل المثال يمكن استخدام تحليل المحادثة والتحليل الروائي للربط بين "الأحداث الجزئية "micro-events" والخطابات الأوسع نطاقًا كوسيلة لإظهار كيف تؤدي الروايات والمحادثات في تفسير التجربة الاجتماعية وبالمثل، تتضمن الدراسات الإثنوجرافية مكونًا مهمًا من دراسات تحليل الخطاب من حيث إنها تظهر كيف تنبني الخطابات في ممارسات معينة.

كما يمكن استخدام تحليل المضمون بطريقة غير آلية وأي بطريقة تعتمد على التأويل لشرح أكبر للربط بين المضمون النصي والسياقات الخطابية الأوسع نطاقًا، وعلى سبيل المثال أجرى إلينجتون (Ellington, 1995) تحليلاً لمضمون عدد من المقالات ومقالات رئيس التحرير عن طريق تعيين موضوعاتها والاستراتيجيات البلاغية التي تستخدمها، ثم ربطها بتشكيلات الجمهور المخاطب. وأجرى هولمز (Holmes, 1998) تحليلاً لمضمون استخدام النساء بعض

مع دراسة علاقته بسلطة المرأة وحضورها (Nelson Phillips & Cynthia Hardy, 2002)

وبرغم أن الفلسفة التي يقوم عليها تحليل الخطاب تميزه عن أشكال أخرى من التحليل، إلا أن الحدود الفاصلة بين تحليل الخطاب والطرق الكمية الأخرى تتلاشى أحيانًا من هنا استخدم بعض الباحثين مجموعة متنوعة من المقاربات التأويلية من أجل إجراء تحليل الخطاب، أي أنهم استعاروا طرقًا كمية تقليدية لتحليل الخطاب. (انظر مبحث الثالث من الفصل الثاني)

ويتطلب تحليل الخطاب من الباحث الذي يقوم بالتحليل الوعي بأهمية تشكيل الفئات والإطارات التي تنتج واقعًا من نمط معين، بسبب تمثيل مفاهيم أخرى إلى اعتبار الفئات التحريرية أمر مسلم به وتلصق بها البيانات، يهتم محللو الخطاب بالطبيعة المفسرة اجتماعيًا لفئات البحث ذاته

إذن لا تتمثل مهمة الباحث عند تحليل الخطاب في تطبيق فئات على حديث المشتركين (عينة البحث)، بل في تعيين الطرق التي يستخدمها المشاركون أنفسهم في بناء واستخدام فئات في أحاديثهم. كما أن محللو الخطاب يشيرون إلى التعبير [illegible] تعقيدات النظرية على مستويات متعددة بما في ذلك دور الباحث، وموضوع البحث، والمجتمع الأكاديمي، وحتى المجتمع ككل. ويحاولون تصميم وعرض بحثهم بطرق تعترف بهذه العلاقات المعقدة. وهنا قد تثار إشكالية الموضوعية والتحيز في عملية التحليل، حتى إن البعض يتهم تحليل الخطاب بالذاتية، ويصف طرقه المختلفة بأنها مجرد تأويلات شخصية. لكن مثل هذه الاتهامات من الممكن أيضًا أن تثار عند مناقشة وتقييم التحليل الكمي، وقد أشارت إلى ذلك كثير من الدراسات حيث إن تحديد العينات وفئات التحليل وتصنيفها ورصدها واستنتاج دلالاتها ومعانيها وفي إجراءات التحليل الكمي لا تخلو من تحيزات ذاتية

ولا يعني ذلك أن كل أدوات وعمليات تحليل النصوص والخطابات غير صالحة أو قاصرة، ولكن المطلوب فقط هو مزج القدامة والصرامة الموضوعية عن كل أنواع التحليل الكمي والكيفي، والتعامل معها وفق نظرة نسبية تتعلق بطبيعة العلوم الاجتماعية ووظيفتها. وتهدف هذه النظرة إلى التطوير المستمر لعمليات التحليل بغية فهم الواقع الاجتماعي، والاقتراب أكثر من الموضوعية والحد من الذاتية، أو حتى الاعتراف بوجودها وتحديد اتجاه وتأثيرها في مجمل عملية التحليل.

في هذا السياق ولتطوير دقة وموضوعية تحليل الخطاب، هناك ضرورة عملية وعلمية للربط بين النص والسياق والخطاب وضرورة تصميم البحث استحقاقًا محكمًا ودقيقًا لطرق البحث، ويمثل هذا الأمر يمثل تحديًا رئيسيًا للباحثين في مجال الخطاب، فكيف نتعامل مع كل هذه التعقيدات؟

تجيب كل من نلسن فيليبس Nelson Phillips و سينثيا هاردي Cynthia Hardy بأنه لا يمكن دراسة كافة نواحي الخطاب، ويتحتم علينا اختيار مجموعة فرعية من النصوص لتحقيق إمكانية التعامل معها. وبرغم ذلك، فباعتبارنا محللين للخطاب لابد أن نشير إلى الخطابات الأوسع نطاقًا ونتعرف على موقع النصوص المفردة في الكيانات الأكبر من النصوص، ونوفي بعض الاهتمام بثلاثية أبعاد النص، والسياق، والخطاب.

كذلك نواجه احتمالات التعلم من خلال العمل عندما نستخدم تقنية تحليلية معينة، فتحسر المعاني أولاً بأول ونعطي ثقلاً للمعاني المتعددة. وبعد أن نقوم بتضمين كل ذلك في دراستنا يجب أن نشرح عملنا في حدود الطرق والمساحات المعتادة للنشر الأكاديمي.

الإشكالية الرابعة ترتبط بعلاقة الخطاب باللغة وبالواقع الاجتماعي، فالخطاب ينتمي إلى عالم اللغة أو العلامات باعتبار أن اللغة هي مجموعة من العلامات، لكن كل علامة لها علاقة بالواقع الاجتماعي، من هنا تثور إشكالية هل اللغة تصنع

الواقع أم أن الواقع الاجتماعي هو الذي يحدد المعنى، بعبارة أخرى هل الأشياء المادية (الوقائع) قائمة لكنها لا تكتسب معنى إلا من خلال الخطاب؟

ومن هذه الإشكالية تثور أسئلة بالغة الأهمية حول من يصنع الخطاب وكيف يصنع؟ ومتى ولماذا يصنع؟ وما هي آليات تغيير الخطاب؟، لكن المتفق عليه أن الخطاب لا ينتج من فراغ، بل في إطار سياق اجتماعي وثقافي وتاريخي محدد ومن هنا لابد من تحليل الخطاب في إطار الممارسة الاجتماعية، ولكي نفهم أي خطاب من الضروري أن نربط بين الخطاب والسياق الاجتماعي والثقافي، بل ينبغي أن نربط بين هذا الخطاب وعموم الخطابات التاريخية والمعاصرة.

الإشكالية الخامسة تتعلق بوحدة وتنوع الخطابات، وطبيعة العلاقات بينها، بمعنى هل يوجد خطاب واحد غالب ومهيمن في حقبة كما ذهب ميشيل فوكو، أم أن هناك خطابات متصارعة؟ .. ثم هل يختلف الخطاب السياسي عن الخطاب الاجتماعي عن الخطاب الإعلامي؟ .. وما هي العلاقات بين هذه الخطابات النوعية؟ . وهل هي علاقات تنافسية أم صراعية أم تكاملية؟

الإشكالية السادسة تأتي كمحصلة نهائية للإشكاليات الخمس السابقة، إذ لا يخفى أن كل إشكالية مما أشرت إليه في عجالة سريعة تعكس اختلافات فلسفية ومنطلقات متباينة لأصحابها ومن ثم رؤى ومعالم ومناهج مختلفة، الأمر الذي يشجع على دراسة هذه المنطلقات النظرية والمنهجية بحيث يرد الباحث كل اختلاف أو تباين حول مفهوم الخطاب، وعلاقته باللغة والواقع الاجتماعي وآليات تغير الخطاب إلى الجذور الفلسفية والمنطلقات التي يعتمد عليها أصحاب المدارس والاتجاهات المختلفة في دراسة واستخدام الخطاب، وهذا المنهج هو ما اعتمد عليه في هذا الكتاب، لكن الإشكالية هنا أقصد الإشكالية السادسة - أنه لا يوجد فصل محدد بين نظريات ومدارس واتجاهات تحليل الخطاب، بل هناك أنواع من التداخل والاستعارات المعرفية والمفاهيمية بين هذه المدارس والاتجاهات، بمعنى أنه من الممكن العثور على اختلافات في الأسس المعرفية والمفاهيمية نورمان فيركلاو

Norman Fairclough أحد رواد تحليل الخطاب، ورائد آخر هو فان ديك Van Dijk، ومع ذلك ثمة مشتركات معرفية ومفاهيمية بينهم. ثم أخيرًا يمكن القول إن أغلب مدارس والجماعات تحليل الخطاب خرجت من معطف ميشيل فوكو وتقلت عنه أو تأثرت بأعماله، ومع ذلك اختلفت معه.

خلاصة القول أن الباحث يمكن أن يحدد الملامح الرئيسية لمدارس تحليل الخطاب، بما في ذلك مدارس تحليل الخطاب الإعلامي، والتي قد تعكس سمات معرفية ومنهجية مختلفة لكنها في الوقت نفسه غير متصارعة بل تتقاطع مع بعضها البعض وتستخدم مفاهيم مشتركة تؤلف بينها وتطورها دون أن تعترف بسيادة أحدها أو اندماجها في منظومة واحدة. ولعل هذا المشهد يعكس أحد ملامح عصر ما بعد الحداثة والخاص برفض الطابع الثابت والجامد للمدارس المعرفية والنظريات الكبرى في العلوم الاجتماعية. في هذا الإطار ثمة محاولات متعثرة تربط بين الجماعات وتيارات ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة Post- modernism، والنظرية النقدية.

إن الحقيقة الثابتة في مجال بحوث تحليل الخطاب هي أن عدم الاتفاق على مفهوم الخطاب واستخداماته لم تمنع من انتشار بحوث تحليل الخطاب، بتناول موضوعات ومجالات متعددة من بينها تحليل الخطاب الإعلامي، الذي يعتبر تطورًا مهمًا لمجال التحليل الكيفي للرسائل الإعلامية وشروط إنتاجها وتداولها وتأثيرها في الجمهور، فضلاً عن تفاعلاتها مع الظروف التاريخية والمجتمعية.

مجمل التطورات السابقة فيما يتعلق بتطور تحليل النصوص والرسائل الإعلامية انعكست بصور مختلفة - وأحيانًا متباينة - على البحوث والدراسات العربية في مجال الإعلام، كما كان لها - وبدرجات مختلفة - مناهجها وعثراتها. وبشكل عام كانت تلك التطورات المنهجية والنظرية تنتقل إلى الدراسات والبحوث العربية بفارق زمني كبير، كما كان يجري نقلها أحيانًا بطريقة آلية ودون تمثل لخصوصيات اللغة والثقافة العربية. وتكفي الإشارة هنا إلى أن البحوث الإعلامية العربية، والتي

صدرت باللغة العربية في الجامعات المصرية استخدمت تحليل المضمون الكمي لأول مرة في مطلع السبعينيات، وقد هيمن التحليل الكمي للرسائل الإعلامية على دراسات وبحوث الإعلام خاصة رسائل الماجستير والدكتوراه في مصر خلال السبعينيات والثمانينيات، إلى أن ظهرت في بداية التسعينيات أول دراسة استخدمت تحليل الخطاب اعتمادا على مساهمات اللغويات واللغويات النقدية حيث استخدمت التحليل الأسلوبي والدلالي (خليل،١٩٨٩). ولمزيد من التفاصيل عن نشأة وتطور دراسات تحليل الخطاب الإعلامي في مصر يمكن الرجوع إلى بحث منشور للمؤلف بعنوان "إشكاليات تحليل الخطاب في الدراسات الإعلامية العربية الدراسات المصرية نموذجًا" (شومان، ٢٠٠٤)

* * *

مدارس تحليل الخطاب

سبقت الإشارة إلى تعدد وتداخل التخصصات والمدارس اللغوية والأسلوبية والأدبية والفلسفية التي تستخدم مفهوم الخطاب ومنهجية تحليل الخطاب. الأمر الذي أدى إلى اختلاط وأحيانًا غموض مفهوم الخطاب والأسس المعرفية والنظرية لمنهجية تحليل الخطاب واستخداماته. من هنا تأتي أهمية عرض وتفسير أبرز هذه المدارس والتخصصات في الدراسات الفرنسية والألمانية والاسكندنافية والأنجلوسكسونية مع التوقف عند أهم مساهماتها النظرية والتطبيقية في مجال تحليل الخطاب عامة، والخطاب الإعلامي بخاصة. وأود أن أشير إلى أنني لن أتقيد بعرض وتحليل مساهمات المدرسة الفرنسية فقط في تحليل الخطاب، انطلاقًا من رفضي لادعاء دومينيك مانجينو Maingueneau - الباحث الفرنسي المتخصص في تحليل الخطاب والذي يحصر تحليل الخطاب داخل المدرسة الفرنسية وحدها (يوسف: ٢٠٠٥)، على أن رفض ادعاء مانجينو لا يقلل من أهمية مساهمة المدرسة الفرنسية في اكتشاف وتطوير مناهج وأدوات التحليل الكيفي، بل والإقرار بأنها صاحبة الريادة في هذا المجال.

المبحث الأول

مدارس التحليل اللغوي والخطاب الإعلامي

ظهر الأصول النظرية لتحليل الخطاب اللغوي في أعمال عالم اللغة الشهير فرديناند دي سوسير، الذي أسس المدرسة البنيوية في دراسة اللغة، والتي تطورت بعد ذلك واهتمت بتحليل الأسلوب، والنص، والتطبيقات اللغوية في مجالات وسياقات مختلفة مثل أهم النظريات الأدبية الحديثة والمعاصرة اعتمادًا على مفهوم تحليل الخطاب. (Barton, 2002, pp. 575-598)

في هذا الإطار ظهر اتجاهات في دراسة الأسلوبية الأول أقرب إلى البلاغة، والثاني يدرس علاقة التعبير بالفرد أو المجتمع وقد أسس شارل بالي علم الأسلوبية اعتمادًا على دراسات سوسير في اللغة، وقد عرف علم الأسلوبية بأنه العلم الذي يبحث في لغة جميع الناس في معكسه لا من أفكار خالصة بل من عواطف ومشاعر، وأن موضوع الأسلوبية هو لغة كل الناس، بجميع الظواهر اللغوية بمستوياتها المختلفة يمكن أن تكشف عن الخواص الأسلوبية في اللغة، لكن تلاميذ بالي ضيقوا من مجال بحث الأسلوبية وحصروه في الدراسات الأدبية كما أخضعوا الجوانب الجمالية للتحليل اللغوي عمادًا على مناهج نفسية وبنيوية وقد أوضح سوسير أن علم الأسلوب يمثل المجال اللغوي كإبداع، في الوقت الذي يمثل علم اللغة المجال اللغوي كنظام. وتاريخيًا كانت ظهرت اتجاهات أحدث اهتمت بشخصية المؤلف وعملية التواصل بين المؤلف والقارئ (فضل، ١٩٨٥، ص ص ٢١ - ٣٧) وقد اهتم علماء اللغة منذ وقت طويل باللغة المستخدمة في وسائل الإعلام حيث ركزوا على تركيب الجمل والقواعد النحوية والبلاغية المستخدمة كما ناقشوا السمات البنائية والبلاغية الخاصة بلغة الإعلام أو ما عُرف بالخطاب الإعلامي.

وتعرضت الدراسات اللغوية التقليدية والأسلوبية إلى انتقادات واسعة بسبب تركيزها على اللغة أو الأسلوب بعيدًا عن السياق المجتمعي، وعلاقات القوة داخل

المجتمع. من هنا ظهر ما يعرف بالاتجاهات اللغوية الاجتماعية والتي اهتمت بدراسة اللغة الإعلامية من منظور اجتماعي ثقافي برز بوضوح في أعمال عالم اللغويات الاجتماعية بل Bell، والذي يهتم بدراسة علاقات الارتباط بين الملامح اللغوية المتغيرة والملامح المتغيرة للسياق الاجتماعي. وقد خلص على سبيل المثال إلى أن درجة تبسيط نطق نهايات الكلمات في لغة المذيعين تختلف فيما بين محطات الإذاعة في نيوزيلندا وفقاً للجمهور الرئيسي لهذه المحطات (Fairclough, 1995, p. 27).

وتركز دراسات تحليل الخطاب ذات المنحى اللغوي الاجتماعي على النص الكامل سواء كان مكتوبًا أو منطوقًا كي تهتم أيضًا بشكل النص وبنيته وتنظيمه على كل المستويات الفونولوجية (علم الأصوات الكلامية) والقواعد النحوية لكن اللغة هنا تشمل القواعد النحوية وتركيب الجملة ومستويات تنظيم النص في مفاهيم خاصة، فضلاً عن بنية المناقشات العامة والتي تتجلى من خلال ما هو اجتماعي وسياسي والقواعد المؤسسية لممارسة الحوار (Curtin, 1996).

إن السؤال الرئيسي الذي يسعى تحليل الخطاب إلى الإجابة عليه هو: لماذا اتخذ هذا النص هذا الطريق ولم يأخذ طريقًا آخر؟ وترى كوتس جينيفر Coates Jennifer أن الإجابة عن هذا السؤال تتطلب تحليل ستة مستويات هي:

- أن الخطاب يُشكَّل من خلال الكلمة، كما أنه يُشكِّل الكلمة. اللغة تشكِّل الخطاب والخطاب يشكل اللغة.
- الممارسة تشكِّل الخطاب، كما أن الخطاب يشكل الممارسة.
- الخطاب يشكَّل من خلال الخطاب السابق (خطاب الماضي) والخطاب يشكِّل إمكانيات الخطاب المستقبلي.
- الخطاب يشكَّل من خلال وسيلته، كما أن الخطاب يشكِّل إمكانيات هذه الوسيلة.
- الخطاب يشكَّل بواسطة غرضه، كما أن الخطاب يشكِّل الأغراض الممكنة.

وتؤكد كوس جيمبر أن الخطاب يرتبط باللغة والدراسات الأدبية ودراسات التعبير والاتصال وتخصصات أخرى متعددة (Jennifer, 1988,237 - 247)

وقد اقترح الباحثون في اجتماعية اللغة منهجًا مرنًا يتمثل في الخطوات التالية

أ- انتقاء المتحدثين، الظروف والمتغيرات اللغوية

ب- جمع النصوص

جـ- التعرف على المتغيرات اللغوية ومسائلها في النصوص

د- الدراسة الإحصائية

هـ- تأويل النتائج (فضل، ١٩٩٢، ص ٢٣)

وأدت هذه المقترحات إلى تطور الدراسات اللغوية وظهور التداولية كفرع علمي من مجموعة العلوم اللغوية التي تختص بتحليل عمليات الكلام بصفة خاصة، ووظائف الأقوال اللغوية وخصائصها خلال إجراءات التواصل بشكل عام، وهذا العلم الذي أخذ ينمو في العقود الثلاثة الأخيرة ذو طبيعة عبر تخصصية تمده جملة من العلوم، من أهمها: الفلسفة وعلم اللغة والأنثروبولوجيا وعلم النفس والاجتماع (فضل، ١٩٩٢)

وتهدف المساهمات السابقة إلى ظهور مدرسة اللغويات النقدية critical linguistics في السبعينيات من القرن العشرين، بجامعة إيست إنجليا على يد مجموعة من الباحثين، وتقوم هذه المدرسة على محاولة الدمج والتأليف بين الدراسات اللغوية النظامية والدراسات اللغوية الاجتماعية والمناهج النقدية والدراسات السيميولوجية، حيث تنطلق من تعدد وظائف النص، خاصة النص الإعلامي، فهناك الوظيفة الفكرية – ووظيفة تكوين الأفكار ووظيفة تصوير العلاقات الاجتماعية والهويات الاجتماعية، كما تنظر هذه المدرسة إلى النصوص كنتاج لاختيارات من بين نظم الخيارات المتاحة من ناحية النحو ومفردات الكلمات وما إلى ذلك، ويعتبر الخطاب هنا مجالا للعمليات الأيديولوجية وللعمليات

اللغوية، مع وجود علاقة محددة ومبررة بين هذين النوعين من العمليات. وبشكل محدد يمكن أن تعمل الاختيارات اللغوية داخل النصوص معنًى أيديولوجيًا، كما تركز تلك الدراسة على عملية الإدراك أو التقديم representation أي طريقة عرض الأحداث، والوظيفة الفكرية أي المتعلقة بتقديم فكرة معينة (Howley, 1999 - Fairclough, 1995, p. 23).

ويعتبر ترو Trew وهودج و كريس Hodge and Kress من أبرز رموز تلك المدرسة، حيث قدم الأول أبحاثًا عديدة حول مسيرة الخطاب في الصحف، ركز فيها على عملية تحويل المواد الإخبارية الواردة من وكالات الأنباء والمصادر الأخرى إلى تقارير إخبارية منشورة، والتغييرات التي تخضع لها القصة الإخبارية من محرر لآخر، أو من التحرير الصحفي إلى التحرير المعمق، إلى المقالات الافتتاحية، عبر فترة زمنية معينة، فقد يحذف الفاعل بهدف ترك القوى الفاعلة أو الجهات المسئولة غير محددة، كما قد تعاد صياغة الجمل أو يقع الاختيار على كلمات محددة بطريقة معينة تتضمن اختيارات لمتغيرات أيديولوجية، بينما ركز كل من هودج و كريس على سلاسل التناص في الممارسات الخطابية، وعلى أهمية اختيار المفردات اللغوية والضمائر والأفعال المساعدة، وميّز هودج و كريس بين النص والخطاب من ناحية المفاهيم والإجراءات النظرية والمنهجية والأهداف التي يسعى كل منهما إلى تحقيقها، فالخطاب هو العملية الاجتماعية التي تكون النصوص متضمنة فيها، بينما النص هو جزء من الخطاب، أي أن النصوص هي نتاج الخطاب، كما ميز هودج و كريس بين الخطاب والأشكال الأدبية رغم أنها يحملان معاني اجتماعية (Gunter and Robert, pp. 67-73- penny cook, 2002)

وقد طور كل من هودج وكريس نموذجًا لتحليل الخطاب من خلال النظر إلى اللغة كأيديولوجية تمامًا كما فعل هاليداي Holliday في السبعينيات من القرن العشرين، حيث استفادا من نظرياته في تحليل الخطاب، واتفقا معه على أن قواعد اللغة هي اختيارات وليست قواعد كما أن النحو هو نظرية للواقع وليس مجموعة

محايدًا كما يعتقد معظم الناس، لذلك ركزا على أن اللغة والتركيبات النحوية يمكن أن تتحد وتتصل مع الأيديولوجية، وتمنح الشرعية لمؤسسات السلطة في المجتمع، ويتكون نموذج هودج وكريس من شبكة من مفاهيم تشمل الأشخاص والأفعال أو المسببات والمفعول به والعلاقات بينها. وعلى سبيل المثال عندما نقرأ جملة (البوليس أطلق النار على متظاهرين) فإن الفاعل واضح بينما المتظاهرون هم المتأثرون بالفعل. لكن عندما نقرأ (ويجرى رجل الشرطة)، فإننا لا نعرف ما هي طبيعة العلاقة وما هو سياق وحدث قيام رجل الشرطة بذلك، وهل هو هنا في دور الفاعل أم المفعول به (Delinger,1995 Tankard,1994).

ويقوم تحليل اللغويات النقدية على أساس النظرية اللغوية "النظامية" systemic (Halliday 1978) فهو يعتمد في تحليل الإعلام وجهات النظر النظامية، أي وجهة النظر التي ترى:

(١) أن للنص وظائف متعددة، فهو يمثل دائمًا وفي آن واحد الوظيفة الفكرية (Ideational Function) والعلاقات الاجتماعية والهويات الاجتماعية.

(٢) أن النص ناتج لاختيارات محددة من بين عدة خيارات متاحة، سواء من ناحية النحو أو مفردات الكلمات، وما إلى ذلك.

ويعتبر النقاد في ظل هذا التحليل مجالاً للعمليات الأيديولوجية والعمليات اللغوية، وهناك علاقة محددة ومقررة بين هذين النوعين من العمليات وتحديد يمكن أن تحمل الاختيارات اللغوية داخل النصوص معنىً أيديولوجيًا؟

ومن التحليلات التي تضيف عمقًا لفهمنا للخطاب، تلك التي تهتم بالإقرار representation (أو طريقة عرض الأحداث) والوظيفة الفكرية (أي المتعلقة بفكرة معينة) أي كيفية تصوير الأحداث والأشخاص والأشياء بهذه الأحداث بواسطة الجمل البسيطة.

وأساس هذه الفكرة المنطقية هي أن تحويل الأحداث إلى أكواد أو رموز معينة في

اللغة يترتب عليه اختيارات معينة من بين النماذج التي يتيحها النحو ، وأن هذه الاختيارات قد تتلون أيديولوجياً قوى. على سبيل المثال في برنامج " اليوم " Today على البرنامج الإذاعي 4 BBC Radio، وفي حلقة ١ مارس ١٩٩٣ ، صدر التعليق التالي عن الأسماك الروسية " الرخيصة " التي كانت تستهدف "إغراق السوق البريطانية " من العجيب أن (هذا الإغراق) لم يصل إلى المستهلك في صورة أسعار منخفضة بشكل كبير "، مثل هذه الصياغة تبدو غامضة ومحيرة أيديولوجياً، حيث كان من الممكن صياغة هذا التعليق بشكل آخر " إن التجار الذين يتولون توزيع تلك الأسماك يرفعون الأسعار للمستهلك "، حيث يصبح تسعير الأسماك عملية سلطة تتضمن طرفاً مسئولاً هم الموزعون.

هكذا نجد في الصياغة الأخيرة أن توزيع الأسماك يرتبط بفعل يتضمن عملية سلطة action process، ولكنها تنعكس على نفسها (أي على توزيع الأسماك)، بينما تتحول عملية التسعير في الصياغة الأولى إلى تقرير حالة بأن الأسعار لم تنخفض بشكل كبير

إن التحيز في الصياغة الأولى يتجسد بوضوح في تجاهل المسئولية والقوة الفاعلة agency وإنه وجد اتجاه منتظم في التقرير الإخبارية خلال هذه الاختيارات بهدف ترك القوة الفاعلة agency والمسئولية غير محددتين مرئياً يبرر ذلك اعتماداً على السياق الاجتماعي الثقافي الأوسع نطاقاً على وجود معنى أيديولوجي لتلك الاختيارات وهناك نوع آخر من التحيز والتحويل يتمثل في تغيير حالة تركز على الفاعل إلى حالة تركز على المفعول به. على سبيل المثال بدلاً من " إنهم يغرقون السوق بالأسماك " يذكر " إن الأسماك تغرق السوق "

وبصورة أكثر تحديثاً، ووفقاً لتعريف " كريس Kress " يتضمن التحليل النقدي للخطاب مع اللغة باعتبارها نمطاً من الممارسة الاجتماعية من بين الأنماط الكثيرة المستخدمة لبيان المراد والتعبير عنه بما في ذلك الصور المرئية والموسيقى والحركات، .. إلخ، فالنصوص تنتج بواسطة " متحدثين ، كتّاب هم وضع

اجتماعي معين" والعلاقات بين منتجي النص في إنتاج النصوص لا تتسم بالتكافؤ دائمًا، بل مرفوع بين التماس الكامل إلى انعدام المساواة الكامل، وتنبع المعاني من التماس فيما بين الفرد وتفاعلهم، وتظهر الملامح اللغوية نتيجة للعمليات الاجتماعية التي لا تأتي اعتباطًا أو عن طريق الصدفة، ففي معظم التفاعلات يأتي مستخدمو اللغة ومعهم توجهات مختلفة نحو اللغة، وترتبط هذه التوجهات ارتباطًا وثيقًا بمواقعهم الاجتماعية. كذلك يجب الاهتمام بالسياق التاريخي بوصفه عنصرًا حاسمًا من أوجه النظر الأيديولوجية والسياسية، وأخيرًا نعتبر دقة التحليل وتحديد مدى أهمية اللغة من العوامل المميزة حاليًا للتحليل النقدي للخطاب.

وبالإضافة إلى البنية اللغوية، تلعب الأيديولوجية ideology دورًا مهمًا في التحليل النقدي للخطاب. ويؤكد (كريس Kress) أن "أي شكل لغوي إذا دُرس منعزلاً لن يكون له أي معنى محدد وحاسم في حد ذاته، ولن يحمل أي معنى أيديولوجي ولن يؤدي أي وظيفة"، وبالتالي "فإن مجموعة التصريحات المعينة والصياغات المحددة التي تشكل أي خطاب تعبر وفي الوقت نفسه تنظم وفقًا لأيديولوجية محددة"، فاللغة لا يمكن أن تظهر بمفردها فهي تظهر دائمًا بوصفها ممثلة لنظام معين من المصطلحات والتصريحات اللغوية التي تعكس بدورها نظمًا منطقية واستطرادية وأيديولوجية معينة.

على سبيل المثال، يورد كريس جملة "أخبرني رئيس الشركة" حيث يحتل "رئيس الشركة" المقدمة الأولى ويكتسب الأهمية لتصدره الجملة، بينما يكون التركيز على المتحدث في الجملة المكافئة في المعنى "علمتُ من رئيس الشركة".

وبالتالي يشير شكل بناء الجملة إلى الوجود المسبق لاختيار أيديولوجي محدد كي يشير إلى أو يعبر عن معنى أو محتوى ذي طابع أيديولوجي. فالمتحدث (أو الكاتب) يعبر عن محتوى أيديولوجي في النصوص، وكذلك الشكل اللغوي للنص "فربما لا يكون انتقاء أو اختيار شكل لغوي معين ضمنه تلقائيًا ومباشرًا بالنسبة لمستخدمه الفرد ولكن الخطاب سيكون إعادة إنتاج لما سبق معتمده"

فالنصوص هي أشكال من تركيبات الجمل المنظمة والمنتقاة، ويعكس " محتوى ميكي " هذه التركيبات التنظيم الأيديولوجي لمجال معين في الحياة الاجتماعية.

ولتوضيح وجهة نظره يختار كريس Kress كمثال نسخة من تقرير إخباري استخدمت فيه " جملاً يتعدى أثرها المعنى المباشر "، وبالصيغة التي تؤكد على أهمية الفاعل لإضفاء صفة السببية على دور المتظاهرين عند التعبير العنصري في مباراة لكرة القدم للمظاهرة التي كانت تعارض في الواقع مظاهرة محددة، ثم تصويرها بواسطة وسائل الإعلام كنتيجة سببها أعمال المتظاهرين.

فقد وصف التقرير المتظاهرين بشكل سيء فاعتبرهم " معارضون " و "يطلقون الشعارات ويطلقون الصفارات .. " حتى إنهم يحاولون " إفساد مباراة .. واحتلال الملعب "، وفي واقعة أخرى " هاجم المتظاهرون بالسياج " حتى إنهم يطلقون " هدم السياج "

يقول كريس Kress " يتضح من تلك الواقعة بالذات أن طريقة عرض الفعل، سواءً كفعل يتعدى أثره المعنى المباشر له، أو كفعل غير متعدي الأثر as transactive or as non transactive لا تعكس الواقع أو حقيقة بقدر ما تعكس الكيفية التي يتكامل بها ذلك الفعل المحدد داخل النظام الأيديولوجي للمستخدم وبالتالي كيفية التعبير عن ذلك الفعل في سياق حديث معين "

إن التفريق الفعلي من جانب الصحفي أو المحرر بين استخدام صيغة تعبر عن تعدي أثر الفعل لمعناه المباشر أو صيغة لا تعبر عن ذلك التعدي، يعتبر مسألة اختيار ولا يأتي صدفة. هذا ما يؤكده كريس Kress ويقدم " كريس " مثالاً آخر لتوضيح طريقة شائعة لاستخدام الجمل التي لا تعبر عن تعدي أثر الأفعال لمعناها، كالتالي " بدأت الأمور بطريقة سلمية إلى حد ما فأسرعت الشرطة إلى السياج الخلفي وبعد ذلك مصادمات حيث استمرت المواجهة عدة ساعات، وحدثت الاعتقالات "

من المثال الأخير يتبين لنا أن مبنى النص الصحفي هيكل أيديولوجي خطابي معين يعبر عن قيم لنظام أيديولوجي معين، وعن "سلطة خطابية" محددة.

ويشير كريس Kress أيضاً إلى أهمية خيارات المفردات اللغوية، وبنظرة سريعة إلى النص يتبين لنا أن بعض التقارير "توجهه استعارة المصادمة العسكرية"، حيث يضع الصحفي أحد الجانبين في دور "العدو" والجانب الآخر في دور "الصديق أو الحامي" ويكتب كريس "فالشرطة حرس المكان"، أي أن الشرطة تمثل المدافعين عن "الخير"، بينما يحاول التجار صنوف احتلال المكان وتخريبه، أي إنهم يمثلون المعتدين في هذه الحالة.

ويضيف كريس "وبهذه الطريقة تصبح إدراكات أو قراءات الجماهير المتلقية مشتركة للإخبارية للنص مهيكلة بهذا الشكل بحيث إنهم سيعتبرون أن التقرير يسجل الوقائع كما هي وحسب" والأكثر من ذلك فإنهم سوف يفسرون النص بهذا الشكل المتحيز أيديولوجياً.

ويوضح "كريس" كذلك أن الجزء المرئي من النص التليفزيوني له أيضاً تأثير مهم على تفسير النص ويتضمن ذلك تصوير المتظاهرين عند التصوير الحضري كأنهم عدوانيين، وذلك من خلال عرض بعض اللقطات المتحيزة.

ويذكر كريس أمثلة أخرى مستقاة من تقارير صحفية، حيث يتم باستمرار تقديم السلطات الحكومية - كرئيس الوزراء مثلاً - في مواقف عفوية، في الوقت الذي تصور الأحداث الرئيسية كإضرابات أو ردود الفعل العنيفة المتمخضة أو الاضطرابات النقابية كأنها تحاول التأثير على رئيس الوزراء.

ويخلص "كريس" ما سبق إلى أنه "من وجهة النظر الأيديولوجية يؤدي ذلك إلى تقديم رئيس الوزراء (من خلال استعارة مبنية على النص وكيفية صياغة الجمل، بالإضافة إلى اللقطات المرئية) في صورة أهم شخص في الموضوع ورغم ذلك، فهو في وضع الخاضع للتأثيرات ولا يتصرف من تلقاء نفسه بل يستجيب للضغوط أكثر من استهلاله للأفعال مع وجود شبكة من العلاقات المتعلقة حوله".

ونتيجة لذلك يبدو " المضاربون الرئيسية متعاطفين بحكومة ، نظراً للاستمرار ثبته على النص وصياغته المجسد والمشاهد المصورة كأنها ليست تصرفات حقيقية. بل مجرد وساطة أو تسهيلات أو علاقات متبادلة فيما بين الأفراد والمجموعات والمناصب المجردة " (Kress,G. and Hodg,R. 1979)

على مستوى آخر قام (تريو Trew) أبحاث مميزة عن مسيرة الخطاب في الصحف discourse in progress ، أي تحويل المادة الإخبارية الواردة من وكالات الأنباء والمصادر الأخرى إلى تقارير إخبارية والتحويلات التي تخضع لها القصة الإخبارية من تقرير لآخر، أو من التقرير إلى التحليل العميق إلى المقالات الافتتاحية، عبر فترة زمنية معينة.

ويشير " ترو " Trew إلى تغطيته التايمز The Times لأحداث إطلاق الشرطة النار على المتظاهرين في زيمبابوي سنة ١٩٧٥، فقد جاء التقرير الأول تحت العنوان التالي " المتظاهرون الأفارقة يسقطون قتلى برصاص الشرطة أثناء اجتماع زعماء ANC" ويتضح أن هذا العنوان يركز على عملية التظاهر، ويجعل من أهميته عمل الشرطة من الناحية الإعلامية، حيث وضعت كلمة " المتظاهرون " في أول العنوان، بينما ذكرت الشرطة في وسط العنوان.

وفي الفقرة الأولى من التقرير المشار إليه جاء ما يلي: " قتل أحد عشر إفريقيا وأصيب حسبما صرح آخرون عندما فتحت الشرطة الروديسية النيران على حشد من ألفي شخص تجمعوا في ناحية " أفريكان هايفيلد African Highfield" بمدينة ساليسبوري Salisbury عصر هذا اليوم "

في هذه الفقرة الأولى نجد التركيز على عدد الأشخاص رغم التصريح بوجود الشرطة بموقع الحادث، إلا أن دور الشرطة يبدو مقتصراً على فتح النيران على المشاغبين، ولا يعزى إليه قتل وجرح الضحايا.

وفي إحدى المقالات الافتتاحية تحول الحدث في العنوان التالي: " حميات الشغب وفقدان الحياة المؤسف في ساليسبوري "، ويضع المقال المسئولية على

الشغب حربي بينما يتجاهل الشرطة كعامل مسئول عن الحادث. وهذه الأمثلة هي جزء من سلسلة أكثر تعقيداً من التحويلات عبر الزمان التي تستهدف إزاحة مسئولية الشرطة إلى الخلفية. وتعتبر هذه التحويلات عمليات أيديولوجية بقدر ما هي عمليات نحوية فهي تشكل الأحداث بطريقة مشابهة للإطارات الأيديولوجية سابقة البناء لتمثيل العلاقات السياسية في جنوب إفريقيا.

وتتضمن العمليات النحوية إعادة صياغة للجمل (أي تغيير كلماتها)، بالإضافة إلى تغييرات نحوية. وعلى سبيل المثال نجد أن عبارة "فقدان حياة" استخدمت في المثال السابق بدلاً من عبارة "قتلوا بالرصاص".

وإلى جانب عمليات التحويل والتحرير اللغوي والنحوي يؤكد علماء اللغويات النقدية Critical linguistics على أهمية اختيار مفردات اللغة (المعجمية) في عمليات التصنيف. على سبيل المثال قد تتناول دراسة عن التمييز على أساس النوع (رجال ونساء) في التقارير الإعلامية كيف تعمل الاختلافات في مفردات اللغة المستخدمة للإشارة إلى الرجال من ناحية وإلى النساء من ناحية أخرى على تصنيف البشر وفقاً لنظم التصنيف القائمة مسبقاً، والتي تحمل في طياتها اتجاهات أيديولوجية قوية. فقد تطرح تلك الدراسة السؤال التالي: هل يشار إلى النساء عادة من ناحية وظيفتهن الأسرية (كزوجات أو أمهات)، أم من نواحي اهتماماتهن الأخرى، أم من ناحية علاقاتهن بالرجال؟

ومن المفيد دمج مثل هذه الأسئلة مع تحليل لنماط العمليات وأنماط المشاركين، مثل: ما نوع المشاركين وفي أي نوع من العمليات ينخرط الرجال والنساء بصفة أساسية؟ على سبيل المثال: هل هناك نفس الاحتمال أن يشارك كل من الرجال والنساء في العمليات النشطة active processes؟ وعندما يؤدي الرجال والنساء دور الفاعلين / الفاعلات actors ما هي نوعية العمليات التي يشاركون يشتركون فيها؟ هل تتضمن هذه العمليات "الابتسام والصريخ" أم "التعاطف والانسحاب" (Fairclough,1995)

إلى خطته التي تحمل في خلفيته فكرياً بالنسبة لنوعية حقيقية معينة تقوم أيضاً بتقدير ما بين الأشخاص بمدى حقيقة أو احتمال الاقتراح المكود encoded والعلاقة القائمة بين منتج النص والموجه إليه النص.

ويشير فيركلاو إلى أعمال فاولر Fowler والتي اقترح فيها مفهوم "الشكلية" modality، والذي يقصد به بشكل عام تغطية ملامح النصوص التي "تعبر عن مواقف المتحدثين والكتاب نحو أنفسهم ونحو المحاورين معهم ونحو الموضوع المعنى". وتتضمن "الشكلية" حروف الضمائر pronouns، والأفعال المساعدة الشكلية modal auxiliaries، وأفعال الحديث وغيرها الكثير.

ورغم أهمية الاستنتاجات التي توصل إليها الباحثون اعتماداً على الأطر النظرية والنماذج التحليلية لمدرسة اللغويات النقدية إلا أنها تعرضت لانتقادات عديدة نظراً لعدم اهتمامها ببحث القواعد المجردة للتركيب اللغوي والنحوي، وكذلك لعدم اهتمامها بطبيعة فهم أو تأويل الجمهور للنصوص التي تشكل الخطاب الإعلامي، أي أن التحليل ينحصر في إطار العمليات التي يقوم بها المحللون ويركز على عمليات إنتاج وتداول النص بغض النظر عن إدراك وتفسير الجمهور المتلقي للنصوص الإعلامية.

لذلك يقترح صلاح فضل على الدارس البلاغي للخطاب أن يتبنى منهج اللسانيات الوصفية بشقه الديناميكي المقترح، محاولاً تحديد الأشكال اللغوية الماثلة في النص وعدم إهمال الموقف الذي وردت فيه، وذلك بالكشف عن الإطرادات الظاهرة ووصف حركتها، فيفحص الخطاب بعتبار الكلمات والعبارات والجمل التي تظهر في البنية النصية للخطاب دليلاً على محاولة المنتج توصيل رسالته إلى المتلقي، ويجعله يعنى على الخصوص ببحث كيفية وصول متلقي ما إلى فهم الرسالة المقصودة من قبل منتج في مناسبة معينة، وكيف أن متطلبات المتلقي المفترض تؤثر في تنظيم خطاب المنتج وتتحدد هذه المقاربة الوظيفية التواصلية مجالاً

أوليًا للبحث، وبالتالي سعى إلى وصف الشكل اللغوي ليس كموضوع ساكن، وإنما كوسيلة منظمة ديناميكية للتعبير عن الدلالة المقصودة (فضل، ١٩٨٥، ص ص ١٢٧ـ١٢٨).

في هذا السياق تجدر الإشارة إلى ظهور اتجاه قوي ومتنامٍ في الدراسات الإعلامية يركز على استقبال جماهير للنص وممارسات التفسيرية والتأويلية بدلاً من التركيز على تحليل النص

المبحث الثاني

ميشيل فوكو وتحليل الخطاب

منحت أعمال ميشيل فوكو الخطاب - كمفهوم ومنهج للتحليل - حياة جديدة وفتحت آفاقًا رحبة أمام الباحثين في العلوم الاجتماعية حيث أسس فوكو مفهومًا للخطاب لا يقوم على أصول ألسنية أو منطقية بل يشكل أساسه من وحدات تسمى بالمنطوقات، وهذه المنطوقات تشكل منظومات منطوقية تسمى بالتشكيلات الخطابية، هذه التشكيلات تكون دائمًا في حقل خطابي معين، وتحكمها قوانين التكوين والتحويل. وعلى هذا الأساس فإن الخطاب يختلف عن الجملة والقضية كما يختلف التحليل الخطابي عن تحليل اللغة والتحليل المنطقي، ذلك أن تحليل الخطاب يعتمد على الوصف الأركيولوجي والتحليل الجينيالوجي. ويسعى الأول إلى رصد قوانين تكون المنطوقات وتراكمها أما الثاني فهو يسعى إلى البحث عن البدايات لكن بطريقة غير تقليدية تختلف عن الطريقة التقليدية التاريخية. حيث يركز على تبين الانقطاعات والفواصل - من أجل الكشف عن ندرة وخارجية وتراكم وتقطع الخطابات أو بتعبير معين يقوم على التحليل التاريخي للخطابات، ولا يعود مرجعية الخطاب إلى الذات أو إلى المؤسسة أو إلى الصدق المنطقي أو إلى قواعد البناء النحوي، وإنما إلى الممارسة (بقورة، ٢٠٠٠ ص ص ١٢٤ - ١٤٤)

ويركز فوكو على نقد وهدم التفكير الغربي الذي كان دائمًا يركز على معنى أن يكون البشر بدلاً من كيف يكون بشر. وفي هذا السياق أكد على وفاة الفاعل الموحد أو الوحيد وظهور كثير من الفاعلين. فالبشر ليس هم الفاعل الوحيد بل هم منتجات الممارسات الخطابية، كذلك فإن الموضوعات ليست حقائق اجتماعية بل هي عملية تتعلق بكيف يأتي الفاعلون بالأشياء إلى الوجود من خلال اللغة، لذلك يمكن القول بوجود علاقة بين السلطة أو القوة power واللغة، وبالتالي يجب اعتبار الفاعلين تكوينات اجتماعية تم إنتاجها من خلال الخطابات الاجتماعية التي تصبح هذه التكوينات الاجتماعية في شكل علاقات القوى (Langer, 1998)

ولعل تمييز فوكو بين البنية كمفاهيم اجتماعية هو ما عرضه لكثير من النقد، بالإضافة إلى نقده وغموض بعض المفاهيم الأساسية التي اعتمد عليها في تحليله للفكر الغربي. وفي مقدمتها مفهوم الخطاب ذاته، حيث أشار إلى الخطابات كتصريحات. وعرف تحليل الخطاب على أنه تحليل للأداء الشفوي، كما اعتبر الخطابات عوامل نشطة لتكوين وبناء المجتمع مع تبنيها في الوقت نفسه لمجتمع معين أو مؤسسة معينة. وفي موضع آخر اعتبر الخطابات تعبيراً عن علاقات القوة، بينما قال في سياق آخر: إن الخطابات تشير إلى كل ما يمكن التفكير فيه أو كتابته أو قوله بشأن موضوع أو شيء معين.

وفي موضع ثالث يعرف فوكو الخطاب بأنه كلمة تطلق على مجموعة من التصريحات التي تنتمي إلى نفس التكوين الخطابي، أي أن الخطاب يتكون من عدد محدود من التصريحات التي يمكن تحديد شروط وجودها. فالخطاب بهذا المعنى ليس شكلاً مثالياً غير محدد الزمن، بل إنه من بدايته إلى نهايته شكل تاريخي، أي قطعة من التاريخ، وهو ... أي الخطاب ـ يضع حدوده الثابتة وتقسيماته وتطوراته والصيغ المتجددة بصفته الزمنية (Jorgensen and Phillips, 2002)

ويرى الرواوي بغورة إلى أن الخطاب عند ميشيل فوكو

أ. يشكل مجموعة من المنطوقات، وهذه المجموعة هي أساس التشكيلة الخطابية والتي تشكل ميدان الخطاب، وتكون محكومة بمنطوقات التكوين.

ب- لا يمكن أن نفصل مفهوم الخطاب عن مفهوم اللغة رغم الفرق الأساسي بينهما. فإذا كان الخطاب مجموعات معرفية متناهية. فإن اللغة نظام مفتوح ومحكوم بالانحراف والتجاور

ج الخطاب والمنطوق والتشكيلة الخطابية تشكل ـ وما يحتوي على تسمية ـ في إطار تاريخ الفكر، فالنص والأثر والقضية و الجملة والمجال العلمي أو الفرع العلمي، فهذه المفاهيم كلها في نظر فوكو ذات علاقة بوهم الأفكار الاتصالية،

وما يريد تأسيسه هو تاريخ الوقائع و الانفصالات، لذلك اعتمد فوكو على مفهوم الخطاب كحدث تاريخي بطبيعة الانفصال والتقطيع

د- إن المفهوم الخاص بالخطاب لا يمكن اشتقاقه مباشرة من الألسنية أو التحليل اللساني أو فلسفة التحليل، ولكن في نفس الوقت لا يمكن لنا فصله عن مجمل الحوارات والمناقشات والأسئلة المطروحة وكذلك المناقشات والأسئلة في هذا الميدان والتي كانت موضع تفكير فوكو وإن بطريقة مختلفة وبمفاهيم مغايرة.

هـ- هذه الطريقة تظهر في كثير من الموضوعات مثل موضوع مرجعية المنطوق، التي لا تحيل لا إلى النحو ولا إلى المنطق بل إلى الحقل الخطابي و الممارسة الخطابية، التي يتم وصفها بمنهجية خاصة، أطلق عليها اسم الأركيولوجيا، ثم أضاف لها الجينيالوجيا (بوعزة، [illegible]، ص ص ١٠١-١٠٢)

يهدف تحليل الخطاب عند فوكو إلى تنوير البنية غير الواعية التي تحد من طريقة تفكيرنا وفي كتابه الشهير (أركيولوجيا المعرفة) حاول فوكو إنشاء طريقة غير تأويلية وغير جدلية وغير مرتبطة بنظرية المعرفة لوصف وتصنيف التكوينات الخطابية التاريخية (Langer, 1998)، ويتبنى فوكو الفرض العام للنزعة التعبيرية الاجتماعية والذي يقرر أن المعرفة ليست مجرد انعكاس للواقع، فالحقيقة بناء خطابي والنظم المختلفة للمعرفة تحدد ما هو حقيقي وما هو غير حقيقي أو زائف، وفي هذا السياق سعى فوكو للبحث في بنية النظم المختلفة للمعرفة، أي القواعد العامة التي تحكم ما يمكن وما لا يمكن قوله، والقواعد التي تحدد ما يعتبر صحيحاً أو غير صحيح. وإذا كنا نسلك من حيث المبدأ عدداً لا نهائياً من الطرق لصياغة المنطوقات أو النصوص statements، حيث نجد أن النصوص المنتجة في مجال معين تميل إلى التشابه والتكرار، بل هناك نصوص لا تحصى لا يتم ذكرها أبداً، ولن تقبل أبداً كنصوص تحت معنى القواعد التاريخية للخطاب بمعنى تحديد ما يمكن قوله (Jorgensen and Phillips, 2002)

إن تحليل الخطاب يتعارض مع منهج التحليل المنطقي ومنهج التأويل، إذ لا يبحث في باطن الخطاب ولا خلف اللغة لكنه يتوقف عند حرفية الخطاب، عكس التأويل الذي يبحث في باطن الخطاب مسائل المعنى والمضمون والفكرة المستترة وراء اللفظ. وقد صاغ فوكو مجموعة من المبادئ للتحليل لأركيولوجي هي: الندرة، والخارجية، والتراكم، والقبلي التاريخي. حيث أكد فوكو أن تحليل المنطوقات والتشكيلات الخطابية يسعى إلى سن قانون الندرة.

يقول فوكو: "وعلى هذا الأساس فإن الخطاب يصبح ثروة لا متناهية وكنزًا لا ينفد، بل ثروة متناهية ومحدودة ومرغوبة ذات قواعد تحكم ظهورها وتحكم أيضا شروط تملكها واستثمارها". ويضيف فوكو: "لا يعنيني في شيء أن أكتشف ما يهمل من قول ما قولاً صحيحًا، أو ما يسمح بإمكانه، بقدر ما يعنيني إبراز شروط انبثاق المنطوقات، وقانون تواجدها مع منطوقات أخرى، والشكل النوعي لنمط وجودها، والمبادئ التي تستمر وفقها في البقاء وتتغير وتندثر" (يفوت، ٢٠٠٥، ص ص ١١٨-١٢٠).

ويمكن القول بدون مبالغة أن أغلبية مدارس تحليل الخطاب المعاصرة تتبع مفهوم فوكو للخطاب بصفته مجموعة من المنطوقات (التصريحات أو التعبيرات) الملتزمة نسبيًا بقواعد معينة، والتي تفرض حدودًا على عملية صنع المعنى؛ ويرى Jorgensen and Phillips أن مدارس تحليل الخطاب تركز على أفكار فوكو التي تعتبر الحقيقة شيئًا خطابيًا، ولكنها تختلف مع اتجاهه نحو تعيين نظام واحد للمعرفة في كل حقبة تاريخية، وعوضًا عن ذلك ترسم معظم مدارس تحليل الخطاب صورة مركبة ينشط فيها النزاع بين الخطابات المختلفة التي توجد جنبًا إلى جنب أو تتصارع على الحق في تعريف الحقيقة (Jorgensen and Phillips, 2002).

وبغض النظر عن هذا الاختلاف، فإن فوكو قد طوّر في مؤلفه (أركيولوجيا المعرفة) وإرادة المعرفة نظرية مهمة للسلطة (القوة) power تتجاوز المفاهيم

والنظريات التقليدية التي تحصر السلطة في الدولة أو في المجال السياسي أو الاقتصادي، وبدلاً من تناول وكلاء السلطة أو هياكل السلطة كمناب أوليه أو تناول السلطة كشيء واحد، طرح فوكو مفهوماً متعدداً للسلطة، فهي سلطة متحللة ومنتشرة فوق الجسد الاجتماعي. إن السلطة عند فوكو ممارسة. وممارسة خطابية. إن السلطة مثل الخطاب لا تنتمي إلى وكلاء معينين مثل الأفراد أو الدولة أو مجموعات ذات المصالح الخاصة بل تنتشر عبر ممارسات لا جمعية مختلفة ومن ثم يجب عدم فهم السلطة كقوة استبدادية فقط، ولكن كقوة منتجة. فالسلطة تشكل الخطابات والمعرفة والكيانات، حيث يقول فوكو "إن الذي يجعل السلطة سائدة ومقبولة حقيقة أن السلطة لا تفرض علينا فقط كقوة تقول لا، ولكنها تخترق وتنتج أشياء وتبعث المتعة وتكون المعرفة وتنتج الخطاب، لذلك يجب اعتبار السلطة كشبكة منتجة تنتشر عبر الجسد الاجتماعي أكثر من كونها حالة سالبة وظيفتها الكبت"

ويضيف فوكو أن السلطة توفر ظروف إمكانية تشكيل الخطاب الاجتماعي، ففي نطاق السلطة يتم إنتاج عالمنا الاجتماعي وتنفصل الأشياء عن بعضها البعض، وبالتالي تكتسب خصائصها الفردية والعلاقات التي تربط فيما بينها. وعلى سبيل المثال أصبحت الجريمة تدريجيا مجالاً له مؤسسته الخاصة (أي السجون)، وأفراده (أي المجرمون)، وممارساته الخاصة، ومنها على سبيل المثال (إعادة التأهيل الاجتماعي). كذلك ترتبط السلطة بالمعرفة. فالسلطة والمعرفة كل منهما يفترض وجود الآخر، وعلى سبيل المثال يصعب تصور نظام السجن الحديث بدون علم الجريمة (Jorgensen and Phillips, 2002)

والواقع أن مفهوم المعرفة والسلطة (القوة) يحتل مكانة مركزية عند فوكو حيث ناقش كافة أشكال السلطة، وقد حدد مفهوم المعرفة السلطة بالجمع والربط بينهما لا بالفصل والتمييز، كما هو الحال عند الفلاسفة والباحثين الماركسيين أو منتقدي

المدرسة والمكتب (بعورة، ٢٠٠٢، ص ص ٢٣٦- ٢٤٣). وقد عارض فوكو فكرة أن السلطة مساوية للقمع والإخضاع والهيمنة كقاعدة أساسية، بل منح السلطة دورًا إيجابيًا، دور الإنتاج دون إهمال بعدها كممارسة أو كفعل نلجأ إليه السلطة في بعض الأحيان، ثم يعرف السلطة بأنها مجموعة من علاقات القوى ضمن استراتيجية محددة (بعورة، ٢٠٠٢، ص ٢٣٣). لكن قد تتمفصل السلطة والمعرفة في الخطاب.

يقول فوكو " يجب ألا نتخيل عالمًا للخطاب مقسمًا بين الخطاب المقبول والخطاب المرفوض، أو بين الخطاب المسيطر والخطاب المسيطر عليه، بل يجب أن نتصوره كمجموعة عناصر خطابية تستطيع أن تعمل في استراتيجيات مختلفة، وذلك لأن الخطابات عناصر أو كتل تكتيكية في حقل علاقات القوى، قد تكون هناك أشكال متباينة بل وحتى متناقضة داخل الاستراتيجية الواحدة نفسها، وبالعكس يمكن أن تنتقل هذه الخطابات بين استراتيجيات متناقضة دون أن يتبدل شكلها (بعورة، ٢٠٠٢، ص ٢٧٨). ويخلص الزواوي إلى أن الخطاب ليس فقط موضوعًا من الموضوعات كالمعرفة والسلطة والسياسة، بل حقل أو ميدان الذي منه تتمفصل المعارف والسلطة واللغة، لذلك لا يمكن أن نقول إن هناك خطابات مقبولة وأخرى مرفوضة (بعورة، ٢٠٠٢، ص ٢٧٨).

هكذا يمكن القول إن فوكو اعتقد أن السلطة أو القوة مستترة عن صنع عالمنا الاجتماعي، وعن الطرق المعينة التي يتشكل بها العالم والتي يمكن التحدث عنه بها، مع استبعاد الطرق البديلة للتكوين أو التحدث. إذن فالسلطة قوة منتجة ومقيدة في آن واحد. وقد تبنى كل من لاكلاو وموف Laclau and Mouffe مفهوم فوكو للسلطة وأسس عليه نظرية الخطاب وعلم النفس الخطابي. ويعد التحدث عن تحليل الخطاب النقدي موقفًا مرنًا تجاه تصور السلطة لدى فوكو (Jorgensen and Phillips, 2002).

أما بالنسبة للمعرفة فقد ربطها فوكو بالسلطة ونتيجة لذلك أصبحت السلطة مرتبطة ارتباطا وثيقًا بالخطاب، حيث يسهم الخطاب بصفة رئيسية في إنتاج شخصيات كتابعين أو أدوات subjects، وأيضًا إنتاج للموضوعات أو الأهداف objects التي نستطيع أن نتعرف عليها، كذلك فقد كان تأثير مفهوم فوكو للسلطة والمعرفة تأثير كبير على تصوره للحقيقة truth. حيث يزعم فوكو أنه لا يمكن التوصل إلى الحقيقة الشاملة طالما أنه لا يمكن التحدث من موقع خارج الخطاب، ومن ثم لا أحد من تحديد الحقيقة أو تمثيلها. ويعتقد فوكو أن تأثيرات الحقيقة تنشأ في إطار الخطابات، لكن الأعمال الأولى لفوكو مثل (أركيولوجيا المعرفة) تصور الحقيقة باعتبارها نظامًا من الإجراءات لإنتاج وتنظيم ونشر المنطوقات، بينما يربط فوكو في أعماله الأخيرة بين الحقيقة والسلطة، حيث أكد أن الحقيقة مدمجة ومندمجة بواسطة نظم السلطة (Jorgensen and Phillips, 2002).

ولاشك أن أعمال فوكو قد أحدثت تأثيرات معرفية ومنهجية واسعة، كما أثارت جدلا واسع النطاق وخضعت لقراءات متعددة. فقد اختلف الباحثون حول تصنيف مساهمات فوكو فهناك من يرى أنها تدخل في سياق ما بعد الحداثة، بينما يعتبره آخرون ما بعد بنيويًا لأنه يؤكد على الوجود الإنساني انعكاسًا على أشكال معرفية والخطابات التي تعمل من خلال اللغة. إن اللغة والخطابات تحدد الواقع بالنسبة لنا، كما أن الخطاب يشكل هويتنا وسلوكنا. فالخطابات تحدد الحياة الاجتماعية من حولنا وتحدد من نحن وطريق حياتنا. إن الخطاب يشكل هويتنا وسلوكنا كما ينعكس في الصراع حول السلطة (Tolson, 1996, p.234, pp.421-422).

من جانب آخر تعددت محاولات قراءة وفهم أعمال فوكو، وقد أدت بعض تلك القراءات إلى تطوير لبعض مفاهيم فوكو نفسه، حيث أعاد بعض الباحثين تعريفها وتوظيفها في مجالات متنوعة من بينها بحوث ودراسات تحليل الخطاب الإعلامي،

حيث يمكن القول بأنه لاتوجد دراسة في تحليل الخطاب الإعلامي أو في التحليل الكيفي لمضامين وسائل الإعلام إلا وستفيد بشكل مباشر أو غير مباشر من أعمال فوكو، رغم أنه لم يكتب عن وسائل الإعلام أو الثقافة الشعبية بشكل مباشر، وتبدو تأثيرات فوكو واضحة في أعمال محللي الخطاب الإعلامي التي قدمها علماء اللغويات خاصة اللغويات الاجتماعية واللغويات النقدية، كما ستظهر بوضوح في أعمال فيركلاف وفان ديك وآخرين (انظر المباحث السادس والسابع والثامن من هذا الفصل).

المبحث الثالث

التحليل السيميولوجي للخطاب الإعلامي

السيميولوجيا Semiology والسيميوطيقا مصطلحان منقولان عن الإنجليزية وهما بدورهما منقولان عن الأصل اليوناني Semeion بمعنى الإشارة أو العلامة، ولذلك فقد ترجم المصطلح إلى العربية أحيانًا بعلم الإشارة وأحيانًا أخرى بعلم العلامات، وإن فضّل معظم الباحثين العرب ترجمتها كما في الأصل الإنجليزي أو الفرنسي السيميولوجيا والسيميوطيقا، ويرى بعض الباحثين بالسيمياء، والسيميائية، والرمزية (القضاوي، ٢٠٠٢).

ويميز بول ريكور بين علم الدلالة semantics، والسيمياء semiotics. فالسيمياء هو العلم الذي يدرس العلامات. وهو علم شكلي صوري بحيث إنه يعتمد على تجزئة اللغة إلى أجزائها المكونة. أما علم الدلالة فهو علم الجملة، الذي يعنى مباشرة بمفهوم المعنى، ويرى بول ريكور أن هذا التمييز بين علم الدلالة والسيمياء يشكل مفتاح مشكلة اللغة بأسرها. (ريكور، ٢٠٠٣، ص ص ٣٢-٣٣)

ولقد أصبحت السيميولوجيا حقلًا معرفيًا حديثًا، وأثرت مقولاتها النظرية وتطبيقاتها في علوم وتخصصات كثيرة كالأنثروبولوجيا والتحليل النفسي والتاريخ والخطاب الصوفي وكل ماله صلة بالأدب والفنون البصرية وغيرها، حيث شكّلت منذ الخمسينيات من القرن الماضي بيئة فكرية أثرت النقد الأدبي، ومع ذلك فإن السيميولوجيا أو السيميائيات ليست تيارًا واحدًا منسجمًا، وليست فكرة معزولة، كما أنها ليست نظرية جاهزة محددة من خلال مفاهيم موحدة، إنها على العكس من ذلك حالة وعي معرفي عُرف بامتداداته في حقول معرفية متعددة فالسيميائيات في نهاية المطاف وبكثير من التبسيط ليست سوى تساؤلات تخص الطريقة التي ينتج بها الإنسان سلوكياته أي معانيه وهي أيضًا الطريقة التي يستهلك بها هذه المعاني وربما كان هذا النوع من الأسباب التي تجعل هذا الحقل

في تيارات متعددة ومتميزة عن بعضها البعض، بل ومتناقضة فيما بينها في أحيان كثيرة (www.saidbengrad.com).

ويرتبط مفهوم التأويل بالتصور الذي نملكه عن المعاني وعن شروط وجودها وأشكال تحققها. فالكلمة - أي كلمة - لا يمكن أن تقف عند حدود التعيين المحايد لمرجع موضوعي مستقل، حيث تحيل أيضا على مجموعة من السياقات المحتملة القابلة للتحيين، أو ممكنات تختصر ما أن للكلمة معاني متعددة تدرك في إطار ذاتي وثقافي اجتماعي وتاريخي ولغوي.

وقد قسّم أمبيرتو إيكو التأويل إلى تيارين كبيرين: الأول تيار يرى التأويل فعلا حرا لا يخضع لأية ضوابط أو حدود، فالسيرورة التأويلية تتطور خارج مواثيق انسجام الخطاب لم تماسكه الداخلي. أما التيار الثاني فيعترف بتعددية القراءات ولكنه يسجل في الوقت ذاته محدوديتها من حيث العدد والحجم وأشكال التحقق، فعلى الرغم من تسجيل أهمية المتلقي في النسج والتزيد في تقسيم أسراره، فإننا لا يمكن أن نتجاهل أنه يحتوي على مجموعة من التحديدات الضرورية التي توجه قراءاته الممكنة. في هذا الإطار يجب التمييز بين مستوى دلالي يكتفي بإنتاج وحدات قيمية من طبيعة تعيينية و يعرف بالتقرير، وبين مستوى ثانٍ يشير إلى قيم مضافة تُدرج الفعل الإنساني ضمن وضع ثقافي خاص ويعرف بمستوى الإيحاء، واستنادا إلى هذا، التمييز يستحيل الحديث عن معنى واحد ووحيد لأن ذلك يتنافى مع طبيعة المعنى ذاته، فتصور مدلول نهائي كل وقاسم يسير في الاتجاه المعاكس للمعنى كما يقول رولان بارت. (www.saidbengrad.com)

ويعتقد امبرتو إيكو أن التيار الأول - أي تيار التأويل غير المحدود - يرجع في أصوله الفلسفية إلى الهرمسية والغنوصية - تياران فلسفيان - وكلاهما كانا ضد العقلانية الغربية. ومع الاعتراف بأهمية التأويل والحدس وقدرة الإنسان على التمرد على القوانين والنظم العقلانية الجامدة والتأثير في الطبيعة وتغيير مجراها، ويرى إيكو أن الغنوصية النصية المعاصرة متسامحة جدا، فبإمكان أي كان أن يكون كائنا كليّا

شريطة أن يكون لديه الرغبة في أن يحل مصداقية القارئ محل مصداقية الكاتب التي ستحمي من السقط، فطالما سيصل إلى الحقيقة، حقيقة أن الكاتب لا يعرف ما يقوله، فاللغة هي التي تتحدث عنه ومن أجل إنقاذ النص - أي نقله من وضع مخاص للدلالة - والعودة به إلى طابعه اللانهائي - على القارئ أن يتخيل أن كل سطر يخفي دلالة خفية، غموض الله تعود الكلمات لتخفي ما تقول، إن مجد القارئ يكمن في اكتشافه أنه بإمكان النصوص أن تقول كل شيء باستثناء ما يود الكاتب التدليل عليه، ففي اللحظة التي يتم فيها الكشف عن دلالة ما ندرك أنها ليست الدلالة الجيدة. إن الدلالة الجيدة هي التي ستأتي فيما بعد، وهكذا دواليك (إيكو، ٢٠٠٤، ص ص ٣٤-٤٣).

ولما كان موضوع العلامة هو أساس علم السميولوجيا فإن وسائل الإعلام تنتج وأصبحت تخلق فيضا من العلامات والرموز. من هنا ظهر الاهتمام بدراسات سيميولوجيا الخطاب الإعلامي، وقد بدأ هذا الاهتمام بدراسة صور الإعلانات أو الصور الإشهارية في الأربعينات من القرن العشرين حيث أثير نقاش واسع حول العلاقة بين السميولوجيا واللسانيات بمعنى هل سيميولوجيا الصورة مجرد نقل حرفي مباشر للمفاهيم اللسانيات مطبق على النماذج البصرية؟ وفي إطار محاولات الإجابة على هذا السؤال تطورت مناهج تحليل الصورة الإشهارية (الإعلانية) استنادا إلى لسانيات دي سوسير وشارل بورس، وأنتروبولوجيا ك ليفي ستراوس ورياضيات شانون، وأعمال بول ريكور التأويلية، وأبحاث رولان بارت السميولوجية، والأعمال الخاصة بالتواصل التي بدأت في سنة ١٩٦٠ في مدرسة الحي بباريس، وبحوث كريستيان ميتز، وتعتبر ك كوسب أنواع المناهج التي انبثقت عن هذه الأبحاث في مجال تحليل الصورة في منهجين اثنين هما المقاربة اللسانية، والمقاربة البلاغية التي تزعمها رولان بارت، ثم ظهر بعد ذلك منهج البنيوي الذي تزعمه لوي بورسر porcher ، ومنهج السيميائيات السردية الذي تزعمه فلوش J.M Floch (مرقش، ٢٠٠٢، ص ص ٢٢٦-٢٤٩).

وتفاعلت هذه المناهج مع بعضها تأثيراً وتأثراً وأنتجت الكثير من البحوث حول خطاب الصورة الإشهارية (الإعلانية) والصورة الفوتوغرافية، والصورة السينمائية، ومع انتشار الصور التليفزيونية اتسع مجال عمل تلك المنهجية من دراسات تحليل الصور وعلاقاتها بالنص المصاحب من جهة، وعلاقتها بالواقع من جهة أخرى مع الاستفادة من الاتجاهات المعاصرة في تأويل الخطاب. في هذا السياق أفردت مجلة الاتصال الفرنسية عام ١٩٦٤ عدداً خاصاً ساهم فيه عدد من الباحثين الذين وضعوا الأسس الأولية لمشروع تحليل الخطاب أهمهم رايموند وتودوروف، وميتز ورولان بارت (القرمي، ١٩٩٧، ص ص ٣٧-٥٢).

وقد انصبت أعمال هؤلاء الباحثين على وضع أسس تحليل الخطاب السميولوجي في وسائل الإعلام، أو بعبارة أدق تحليل الخطاب الإعلامي من منظور سميولوجي فقط. وقد مهدت هذه الأعمال الطريق لظهور مساهمات العدد كبير من باحثي الإعلام والاجتماع في السبعينات والثمانينات. ومن كان من أبرزهم هارتلي Hartley الذي ركز على تحليل النشرات الإخبارية التليفزيونية من خلال مجموعة من الأكواد والأعراف السميولوجية التي تشكل أسس الملامح النوعية والمرئية للفقرات الإخبارية، وتناول تحليل الأكواد المرئية Visual Codes الطرق المختلفة لتقديم الأخبار عبر التليفزيون - مثل "المراسل المتحدث" (أي صورة مذيع الأخبار أو مراسل وهو ينظر إلى الكاميرا مباشرة) واستخدام الرسوم البيانية والصور الفوتوغرافية الثابتة، والأنواع المختلفة من طرق نقل الواقع أو التقارير الفيلمية film report (على سبيل المثال تقديم فيلم عن الواقعة الإخبارية في نفس الوقت، أو تقديم التصوير الخارجي مع تحدث مراسل للكاميرا مباشرة أو إظهار أحد أفراد الجمهور وهو يتحدث لمراسل غير مرئي)، كما يتناول تحليل الأكواد المرئية إطار الصور العامة أو التركيز على التفاصيل (لإعطاء الصورة العامة أو التركيز على التفاصيل) وتسلسل اللقطات. ويهتم هذا التحليل بالاختيار من بين المتغيرات المتاحة في نطاق الأكواد المرئية - بما في ذلك الخيارات التقنية المتعلقة بعمل الكاميرات - بحمل معاني اجتماعية (Tuchman, 1978).

ويقوم هارتلي بتحليل مجموعة من الأكواد، والأعراف المرتبطة بالمعنى، بما في ذلك تصنيف العثرات الإخبارية إلى عدد صغير من الموضوعات الرئيسية، وأثر القيم الإخبارية باعتبارها كود أيديولوجي ideological code) على تناول الموضوعات وافتراض الاتفاق الجماعي في الرأي، وكيفية التعامل مع الخلاف في الرأي، وتوجيه الحديث لجمهور المستمعين (أي عمل مذيعين كوسطاء يرجعون الأخبار إلى مصطلحات ذات معنى بديهي بالنسبة للمستمعين)، واستخدام أسلوب عادي اتصالي، وإعطاء تركيبة معينة للفقرات الإخبارية.

ومن نقاط التركيز المعطية في التحليل العلاماتي التركيز على الفئات والتصنيفات كفئة أيديولوجية، والتي تكون متضمنة في النصوص الإخبارية، وعلى الفئات المبجلة أو المنافسة والتي تكون غائبة أو مكتومة. على سبيل المثال، فإن القصص الإخبارية تركز على الناحية الشخصية للخبر حيث تهيمن فئة الشخصية المعرفية على قصة الحدث، بينما تكون فئة الفاعل الاجتماعي (وبصفة خاصة الطبقة الاجتماعية) مكتومة أو مسكوت عنها. وكذلك نجد أن كثيرًا من المواجهات التي تظهر على سطح النص بين الحكومة والنقابات، أو الإدارة والمضربين، أو بين الزعماء الغربيين والحكام الدكتاتوريين الأجانب – هذه المواجهات يمكن تشبيهها بمعارضة ضمنية بيننا وبينهم أي بين "نحن" و "هم". (Fairclough, 1995, pp.22-27)

ويسير جيسكا فيشمان Jessica Fishman إلى مقولة فرويد Freud بشأن تعارض معرفتنا مع معتقداتنا، فمثلاً قد ندرك أن شخصاً من صورة ما قد مات فوتوغرافية، أو نعرفها رغم أننا نعلم أنه ميت والدنيا، فالصورة الفوتوغرافية صورة حية وهنا فيما يبدو صلة مادية بموضوعها، حيث تظل الصورة الفوتوغرافية هي النسخة المميزة من الواقع، فهي تعتبر إعادة تقديم للواقع أو نسخة عبر مشروعه من العالم. وبالتالي فإن ما يشكل قدرة الصورة الفوتوغرافية على فرض نفسها كتمثيل للواقع بشأ جديد من طبيعتها الدلالية المميزة والمميزة عن معاني

الضمنية التابعة منه. وقد فسر نورثروب فراي Northrop Frye ذلك تفسيرًا بأن المعنى الدلالي لنص معين يشير إلى التعريف أو المعنى القاموسي للكلمة أي المعنى المعترف به والذي يستند إلى النص، بينما يشير المعنى الضمني إلى المعاني التي تعبر عن آراء شخصية تجاه النص، وأكد فراي أن المعنى الضمني يثري النص بمعاني إضافية جديدة (Jessica Fishman, 2001)

وقام رولاند بارثر (Roland Barthes) بتطبيق هذا التمييز على فهم الصورة الفوتوغرافية، حيث ميز بين الوظيفة الدلالية أو المؤشرة للصورة الفوتوغرافية عن مستوى المعنى الضمني للصورة الذي يتحدد ثقافيًا، لكن سيكولا Sekula يؤكد أن هذا التمييز خلافي إلى حد كبير، ففي عالم الواقع، لا يمكن أبدًا الفصل التام بين القيمة الدلالية والناتجة عن الملاحظة العملية عن المعنى التقليدي الرمزي، ويصرح بارثر موقفه انطلاقًا من أن الصورة الفوتوغرافية تمثل المنظر نفسه أي الواقع نفسه، ويكون في إطار عملية نقل الشيء إلى صورته، هناك تصغير في الحجم النسبي وفي المنظور وفي اللون، ولكن هذا التصغير لا يشكل تحولاً أبدًا، بل هو عملية نقل للواقع في صورة فوتوغرافية عبر تقسيم الواقع إلى وحدات، ثم تشكيل هذه الوحدات كعلامات تختلف اختلافًا بالغًا عن الشيء الذي تمثله. ويشير بارثر إلى أن الصورة هي رسالة بلا تشفير، أو هي بتعبير جون تاج John Tagg ليست إنتاجًا بلاغيًا، ولكنها إنتاج مضروب بسياقه بلاغية.

بينما ترى جيسكا فيشمان أن الصور الفوتوغرافية مثلها مثل الأنواع الأخرى من الصور لها معاني ضمنية قوية، لكن تظل قوة الصورة وقدرتها على الإقناع معتمدة إلى حد كبير على ما تملكه الصورة من دلالة خاصة بها (Jessica Fishman, 2001)

ويمكن القول بأن من أهم إنجازات أبحاث سميولوجيا الصور والنصوص الإعلامية أي الخطاب الإعلامي - التأكيد على الجوانب الثقافية الاجتماعية في تحليل النصوص الإعلامية من خلال ربط خصائص النصوص بالأيديولوجيات بعلاقات القوى والقيم الثقافية وانطلاقًا من تسليمها بوحدة الظاهرة الدلالية أيًا

كان لغتها أو شكل تجسيدها، وكذلك نسيجها بأن اللغة والدين والأسطورة والخرافة وكل السلوكيات الثقافية هي أشكال رمزية. من هنا يمكن تعريف الإنسان بأنه كائن رمزي، ولا يمكن للسلوك الرمزي سوى أن يكون إنسانياً، ومن هنا فإن الثقافة ذاتها ليست سوى نسيج مركب من الأنظمة الرمزية على حد تعبير كلود ليفي ستراوس.

خصوصية السيميولوجيا

وبدون الدخول في تفاصيل معرفية ونظرية كثيرة فإن هناك مجموعة من الاختلافات العميقة بين السيميولوجيا وبين مدارس التحليل اللغوي، لعل أبرزها أن الأخيرة تعمل على أساس مفهوم نصوص متأصل نصوياً، يستبعد تماماً مفاهيم التعدد الدلالي، والتأويل (الهيرمونطيقا)، وبالتالي إمكانية بل ومشروعية القراءات المتعددة، ولعل مشروعية التأويل هي تمثل نقطة الخلاف الرئيسية أيضاً بين مدارس واتجاهات السيميولوجيا، وبين مدرسة تحليل الخطاب الملتزمة أو المتأثرة بمنهجية ميشيل فوكو في تحليل الخطاب، إذ يرفض فوكو كل أشكال وآليات التأويل، ويعتبره شكلاً من أشكال التحايل والتحوير الذاتي.

حين يدعو بول ريكور إلى الحدس إلى التأويلية، ويرى أن النظريات الرومانسية في التأويل ولاسيما عند دلتاي وشلايرماخر قد حاولت إحداث مطابقة وتماه بين التأويل ومقولة الفهم، وعرفت الفهم بأنه التعرف على قصد الكاتب من وجهة نظر المستمعين البدائيين في موقف الخطاب، وقد ترغب الأولوية التي منحت لمقاصد المؤلف والمستمعين أن يكون الحوار نموذجاً لكل موقف فهم، وبالتالي أن تظل التأويلية محصورة في إطار نزعة نفسانية، حتى وإن لبست لبوس حوار بين الذاتيات المتصلة.

ويضيف بول ريكور أن توصيف التأويلية ذات الطابع النفسي – كأن توصيات التأويلية المعاكسة قد أدت إلى سوء فهم مزدوج يخص الواقعة والمعنى في الخطاب، وجدل المعنى والإحالة في المعنى نفسه، ويفضي سوء الفهم ذو الشقين

عند بدوره إلى إسناد مهمة مقنوطة للتأويل، ويربط بول ريكور بين التأويلية ومفهومه للخطاب بوصفه واقعة ومن ثم يجب أن يفهم بوصفه معنى، كما أن للخطاب وظيفة إسناد متاحة ومتعالقة بوظيفة تحقيق الهوية من هنا فإن مصطلح التأويل عند بول ريكور لا ينبغي أن ينطبق على حالة فهم جزئية متفردة أي التعبيرات الحياتية المكتوبة، بل هو كامل العملية التي تحيط بالتفسير والفهم، أي أن التأويل هو جدل التفسير والفهم أو الاستيعاب (ريكور ٢٠٠٣)

والثابت أن السميولوجيا ومدرس التأويل قد تعرضت وما تزال لرفض شديد وواسع من الباحثين والمختصين في مجال الدراسات الإعلامية، والذين ينطلقون من مسلمة أساسية وهي إقناع وتوصيل رسالة واضحة ومحددة لجمهور بهدف التأثير فيه، وبالتالي فإن التسليم بتعددية الدلالات والمعاني، ومشروعية القراءات المتعددة واللانهائية يعني فشلهم في القيام بوظيفتهم، وتفتيت الجمهور ليس إلى مجموعات أو قطاعات ذات مصالح متشابهة، بل تفتيت الجمهور إلى حوالي فردية لكل منها استقباله الخاص للرسالة الإعلامية وتأويله. من هنا اتهمت بحوث السميولوجيا في مجال الدراسات الإعلامية بأنها تمارس ألعابًا حول المعنى والدلالة لا تفيد في شيء. وأنها ليست أبحاثًا بل محاولات لنقد النص، وذلك رغم الاختلاف الشديد بين الخطاب الإعلامي، والخطاب الأدبي والفني فالخطاب الإعلامي يجب أن يكون واضحًا وقاطع الدلالة، كما يجب أن يتجنب الصيغ البلاغية أو الأدبية غير المباشرة

ولكني أعتقد أن مقولات منتقدي السميولوجيا يمكن مناقشتها والرد عليها، لاسيما وأنها تنطلق من مسلمات تقليدية تجاوزتها الأحداث، فتكنولوجيا الاتصال وشبكة الإنترنت وثورة المعلومات غيرت كثيرًا من واقع الممارسات الإعلامية عبر العالم، وبالتالي أقترح مراجعة تلك المواقف في ضوء أن العالم يعيش فيضًا هائلاً من الرموز والمعاني والصور المتعددة بل والعابرة للقوميات والجنسيات عبر البث الفضائي وشبكة الإنترنت، ومن ثم فإن الجماهير العريضة والمتنوعة ثقافيًا عندما

مستقبل هذا الخطاب فإنه سيعيد قراءته ويستنتج قراءات متجددة من شأنها إعادة إنتاج بعض مكونات هذا الخطاب. إنني هنا لا أدعو لتبني مقاربة السيميولوجيا بل أدعو فقط إلى احترام وتقدير جهودها والتشجيع على استخدامها عربيا لتقدم نتائج واستخلاصات مفيدة وقابلة للتعميم، ولتصبح أيضا جزءا من أدواتنا النظرية والمنهجية في تحليل الخطاب الإعلامي

المبحث الرابع

تحليل المحادثة والخطاب الإعلامي

في إطار نقد وتجديد علم الاجتماع التقليدي اقترح عالم الاجتماع الأمريكي هارولد جارفينكل Harold Garfinkeld في منتصف الستينيات من القرن الماضي الاهتمام بتحليل الأساليب التي يستخدمها الناس العاديون في حياتهم اليومية لتفسير أنشطتهم، وجعلها مفهومة سواء لأنفسهم أو للآخرين، وفي هذا السياق صك جارفينكل مصطلح الإثنوميثودولوجيا Ethnomethodolog، والذي يعني منهجية الجماعة أو بالأحرى منهجية دراسة الإدراك العام للجماعة، وقد نهضت الإثنوميثودولوجي على خلفية فلسفات متنوعة منها الفينومونولوجيا، وفلسفة فيتجنشتين، بالإضافة إلى كثير من اتجاهات ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة، واهتمت الإثنوميثودولوجي باللغة والمعنى وبالطريقة التي يسهم بها حديثنا في خلق الواقع الاجتماعي، وقد ظلت الإثنوميثودولوجي اتجاهًا مقبولا للبحث لدى فئة من الباحثين، إلا أن هذا الاتجاه أصبح حركا من قبل نظرية علم الاجتماع بعض أعمال أنتوني جيدنز (مارشال، ٢٠٠٠ ص ص٨٧-٩٦).

لكن يلاحظ أن معظم الباحثين الذين استخدموا تحليل المحادثة CA) Conversation Analysis أحجموا عن مناقشة الأطر النظرية المستخدمة أو الإجراءات المنهجية في أبحاثهم كما أن أغلب بحوث تحليل المحادثة تتجنب الحديث عن الجوانب التطبيقية التي اعتمدت عليها عمليات؛ وهذا الأمر يؤدي إلى ارتباك القراء الذين اعتادوا إجراءات معينة في الأبحاث تقوم على الممارسات الخاصة بالعلوم الاجتماعية مثل الإطار المنهجي وأدوات التحليل.

إن بحوث تحليل المحادثة لا تهتم بتحديد الفروض أو الإجراءات المنهجية التي تضمن موضوعية البحث، كما لا تهتم بوصف العينات التي خضعت للتحليل أو إجراءات التكويد، ولا تستخدم الإحصاء، وبدلاً من ذلك يواجه القارئ بتفاصيل

عن الهاتف ووصف مسجل للتفاعلات التي عادة ما تكون شخصية. ولكن بعض الأعمال الأولى لتحليل المحادثة تضمنت مزيجاً من الشرح لأهداف وإجراءات تحليل المحادثة مثل ما قام به Schegloff & Sacks عام ١٩٧٣م، كما قام Sacks عام ١٩٨٤ بجمع كثير من الأعمال المنشورة حول منهجية تحليل المحادثة (Paul Ten Have, 2005)

فمن الصعب على أي شخص أن يقرأ هذه الأعمال ويجد خطة للخطوات يمكن اتباعها لكي يحلل المحادثة بشكل جيد وهناك عدة أسباب لذلك تدل أهمها أن الإجراءات المستخدمة تكون كافية وتفصيلية بالنسبة لكل مادة على حدة، كما أنها أقرب ما تكون إلى خطط للتحليل المتعمق.

في ضوء ما سبق يمكن القول بأن تحليل المحادثة هو عبارة عن نوع خاص للتحليل يمكن استخدامه للوصول إلى نظام خاص للتعرف الواعي على الطرق التي يستخدمها أفراد المجتمع للتفاعل فيما بينهم. إن الهدف المركزي في بحوث تحليل المحادثة هو وصف وشرح العناصر التي يستخدمها عادة المتحدثون ويعتمدون عليها في مشاركة الحديث، والتفاعل الاجتماعي المنظم، بالإضافة إلى وصف العمليات التي ينتج بها المتحاورون سلوكهم وفهمهم ويتعرفون من خلالها على سلوك الآخرين.

إن الافتراض الرئيسي عند جارفينكل Garfinkeld هو أن الأنشطة التي تنتج الاتصال والفهم تكون مسئولة عن إنتاج وحسم عمليات عامة متفق عليها، ولا يعني هذا أن تحليل المحادثة يركز على التحليل فقط أو دور الباحث الذي يقوم بالتحليل بل أيضاً يركز على طبيعة أدوار وأهداف الأفراد المشتركين في الحوار، ولذلك فإن هناك منهجين في تحليل المحادثة تركز على مستويين، الأول، التحليل العام، والثاني التحليل الخاص أو التفصيلي الذي يسمح بتحليل أدق يهتم بالظروف المحلية، وهو ما أطلق عليه Sacks المضمون الحر Context Free والمضمون الحساس أو المرهف Context Sensitive (Paul Ten Have, 2005)

وكما سبقت الإشارة فإن الباحث يحلل المحادثة لا تتم بالملاحظة، أو باستخدام الأدوات التي تستخدم في البحوث الاجتماعية كالمقابلات والنماذج والأدوات الأمبيريقية في البحث، بل تركز على تسجيل المحادثات بالصوت أو بالصوت والصورة أو حتى تسجيل النصوص كتابة. ويؤكد باحثو تحليل المحادثة أن المادة المسجلة أدق وأكثر دقة من كل البيانات التي يتم جمعها من الناس أو عبر عينات، فشريط الصوت والصورة يمكن الاستماع إليه أو مشاهدته أكثر من مرة أثناء التحليل، كما أنه يسجل تفاعلات الناس بشكل طبيعي كما هي في أرض الواقع أو في حياتهم اليومية، فالباحثون عادة يركزون على كل ما هو أساسي وواقعي.

من هنا تعرض تحليل المحادثة إلى انتقادات عديدة منها توجيه النقد لأصل التحليل وهدفه، فتفسير معاني كلام المشتركين ليس له نهاية أو لا يمكن أن يكون له بداية ومحددة حتى يبدأ تنظيم المحادثة. كما أن تحليل المحادثة خاصة البحوث الأولى في مجال تحليل المحادثة لم تتضمن توضيحًا بالقدر الكافي حول أهداف البحث واستراتيجيته. وهذه النقطة حرّضت بحوث تحليل المحادثة لانتقادات عديدة ودفعت بعض هذه الانتقادات إلى تطوير تحليل المحادثة، وشجعت الباحثين على الاهتمام بالظروف المحيطة بالمحادثة.

في هذا السياق أسس هارفي ساكس قواعد لتحليل المحادثة أو ما يعرف أحيانًا بخطاب الحياة اليومية سواءً كانت أحاديث هذا الخطاب تجري بشكل رسمي أو غير رسمي، وبغض النظر عن طبيعة الاختلاف أو الاتفاق بين أطراف المحادثة اليومية. وقد استخدم هيريتاج Heritage وجريباتش Greatbatch وهاتشبي هذه القواعد لتحليل الأحاديث والحوارات في وسائل الإعلام المختلفة، وركز هيريتاج على الصيغ التي يستخدمها من يقومون بإجراء الأحاديث فيمن تشرب الأخبار لتلخيص ما قاله المتحدثون، حيث يؤكدون على نوع معينة ويهملون جوانب أخرى، ويرى هيريتاج Heritage أن هذه الصيغ عبارة عن أداة مهنية أو فنية يستخدمها الذين يجرون الأحاديث من المذيعين لإدارة دفة الأحاديث في نطاق القيود التي يضطرون للعمل في ظلها.

ويركز هيريتاج على الصيغ Formulations التي يستخدمها من يجرون بوجه عام الأحاديث من أجل شرح الأنباء، ويبنى على أحد الأسئلة التي قدمها هيريتاج والتي توضح دور مقدمي البرامج أو المذيعين في إدارة وتوجيه المحادثة

- مندوب الأخبار: هل يسعدك أن يصبح الأمير تشارلز Prince Charles ملكًا يومًا ما؟

- الرجل: إنه يعني .. نعم أنني لا أهتم من يصبح ملكًا ومن لا يصبح ملكًا

- مندوب الأخبار: تعتقد أن هذا لن يمثل أي فرق بالنسبة لك؟

ويلاحظ أن الصيغة (التي أتى بها مندوب الأخبار أو المحاور) المقدمة هي أحد مشتركة الاستخدام من جانب المذيعين الذين يجرون الأحاديث Interviewers لتلخيص ما قاله المتحدثون Interviewees حيث تتجه الصيغ غالبًا إلى التأكيد على نوع معين مما قيل، أكثر من نوع أخرى، وكثيرًا ما تزيد على ما قيل صراحة، وتحمل اتجاه تقديم فهم خاص من جانب المذيع المحاور لكلام المتحدث، ويوضح المثال السابق ذلك، فالمتحدث لم يعمد إلى التعبير عن عدم أي فرق بالنسبة له، ولكن عبّر عن ذلك ضمنيًا

ويعتقد هيريتاج Heritage أن هذه الصيغ عبارة عن أدوات تقنية، تستخدم في نطاق قواعد وقيود العمل الإعلامي، وأحد هذه القيود هو وجود جمهور من المستمعين، فالصيغ وسيلة لإشراك الجمهور في الموضوع عن طريق توضيح ما يقوله المتحدثون واستنتاج معاني الحديث. أما القيد الثاني فيأتي من الحاجة إلى محافظة المذيع أو مندوب الأخبار بموقف من الحياد الرسمي، فالصيغ البديلة تمثل وسيلة جيدة لتقييم ما يقال، أو درجة صعوبة أو سهولة الأسئلة بالنسبة للمستجوبين (المتحدثين Interviewees) أو دفع الحديث في اتجاه معين بدلاً من اتجاه آخر، ويمكن إضافة قيد ثالث يتعلق بوقت البرنامج أو تحديد الوقت المتاح للمتحدث، بالإضافة إلى قيد السياسة الخاصة بالمحطة الإذاعية أو التليفزيونية

وثمة فروق مهمة بين الأساليب المقروءة وكل من الأحاديث الإذاعية والتليفزيونية وكذلك بين أنواع وأصناف كل حوار. ولعل أهم هذه الفروق من وجهة نظري أن التدخلات في الأحاديث المقروءة في الصحف والمجلات لا تظهر أمام المتلقين أو حتى أمام الباحث الذي يقوم بإجراء تحليل للمحادثة، بينما تظهر هذه التدخلات بوضوح في الحوارات المذاعة بشكل مباشر في الإذاعة والتليفزيون، مقارنة بمثيلاتها التي تسجل ثم تخضع لمونتاج ثم تذاع حيث يمكن إخفاء أو تحسين نوعية وحجم تدخلات المذيع.

ويؤكد هيريتاج Heritage على جانب معياري للأحاديث الإخبارية news interviews أي الشيء المشترك في هذه الأحاديث ويتمثل في قواعدها الإجرائية المفهومة ضمنيًا. ولكن الأحاديث تتسم بتنوع مع هذا، فهناك تنوع كبير فيما بينها من نواحي الشكل والمضمون كما يمكن ملاحظة هذا التنوع تاريخيًا، فلا شك أن الأحاديث التي كانت تجري في عام ١٩٦٠ تختلف عن الأحاديث التي كانت تجري في عام ١٩٩٠ كما يظهر هذا التنوع أيضًا في الإذاعة المعاصرة، حيث يتأثر الحديث بالوسيلة الإعلامية المستخدمة وبنوعية البرنامج وبالأسلوب الخاص للمذيع أو المحاور interviewer (Fairclough, 1995).

وأعتقد أن أعمال هيريتاج Heritage على أهميتها تحتاج إلى قدر من المراجعة النقدية ترتبط بصعوبة التسليم بصحة الفرضية التي وجهت بحوثه، حيث لا يمكن التسليم بأن تدخلات المذيع أو مندوب الأخبار هي مجرد أدوات تقنية تفرضها قواعد العمل، إذ إن للمذيع نفسه مواقف وتحيزات أيديولوجية وأحيانًا مواقف شخصية من الشخص أو الأشخاص الذين يجرى معهم الحوار، كما أن استجابات أو تدخلات المذيع تعبر عمومًا أيديولوجيًا من الطراز الأول سواء اتفق أو اختلف مضمون هذا التدخل مع سياسة الوسيلة الإعلامية التي يعمل فيها المذيع.

ويمكن للمحلل في ضوء متابعة البرامج الحوارية خاصة في الفضائيات العربية -

أن بعض مذيعيهم تحولوا إلى ساحة تحت السيطرة فيما يتعلق بسياسة الفضائيات التي يعملون فيها، وأن هذه السلطة الصغيرة المستقلة نسبيًا تمارس أشكالاً من القهر على شخصية الضيف المتحاور، مع ملاحظة أن مظاهر ودرجات هذا القهر تختلف بحسب أهمية شخصية الضيف.

واللافت للانتباه أن بعض مذيعي العرب في الإذاعات والمحطات التليفزيونية العربية يستخلصون أحكامًا وآراء من إجابات المتحاورين تختلف بدرجة كبيرة بل وتتناقض أحيانًا مع المواقف الحقيقية لهؤلاء الأشخاص، ويمكن لإجراء عدد من بحوث تحليل المحادثة يكشف تفصيلاً عن آليات التدخل والتشويه والتحيز التي يمارسها المذيعون في برامج عربية شهيرة.

في المقابل ثمة من يركز على عدد من سلوك وأداء الضيوف أو الأشخاص المتحاورين في البرامج الحوارية والإخبارية، حيث يميل بعضهم إلى الإطالة أو المراوغة أو استخدام مفردات تخرج عن آداب الحوار في الهجوم على الخصوم، في هذا الإطار يرى جرينباتش Greenbach (١٩٨٦) أن إحدى القواعد الإجرائية لإجراء الأحاديث بطريقة معيارية، هي ضرورة أن يقتصر المتحدث على إجابة الأسئلة، لكن بعض المتحدثين لا يطبقون دائمًا هذه القاعدة فأحيانًا يجيبون عن السؤال بالحديث عن موضوعات خاصة بهم أولاً ثم يجيبون عن السؤال، وأحيانًا لا يجيبون عن السؤال أو يقدمون إجابات غامضة.

خلاصة القول أن هناك اختلافات في معايير وقواعد إجراء الأحاديث نتيجة التطور الزمني وإمكانيات وخصائص كل وسيلة إعلامية والأسلوب الخاص بالشخص الذي يجري الحوار فضلاً عن طبيعة ونوع الحديث، ويرى جيركلاو أن تحليل المحادثة قد أضاف موردًا جديدًا إلى اللغويات الوصفية من خلال دراسة عمليات توجيه الحوار والتحكم في الموضوع وصياغة الأفكار لكنه تجاهل الكثير من الجوانب التي يهتم بها الوصف اللغوي حيث يركز على التفاعل أثناء الحوار، كذلك فإن تحليل المحادثة لم يهتم بربط خصائص اللغة والحوار بعلاقات القوة

والأيديولوجية والقيم الثقافية داخل المجتمع .(Fairclough, 1995, p. 22) ورغم هذا النقد إلا أن تحليل المحادثة قد حقق انتشارا في السنوات الأخيرة بعد استخدامه على نطاق واسع في دراسات تحليل المحادثات والحوارات عبر الإنترنت.

وبخلاف ما سبق توجد اختلافات عديدة حول استراتيجيات تحليل المحادثة وحول تسجيل الشعور العام أو الإدراك العام في المحادثة، كما توجد اختلافات حول عملية التفسير وحول ثبات النتائج مع اختلاف المحللين. ثم هناك جدل حول تأثير العوامل الاجتماعية للمشتركين في الحوار ودوافعهم، كما أن هناك اختلافات شكلية وموضوعية في تحليل الحوارات بحسب نوعها وسياقها العام والخاص فالحوارات التي تجري في وسائل الإعلام تختلف عن تلك التي تدور في فصول الدراسة أو في العيادات الطبية والمحاكم ... الخ.

وبمراجعة القضايا المنهجية في تحليل المحادثة يرى بول تن هاف Paul Ten Have أن تحليل المحادثة هو موقع بين التفسير والتحليل، أي حالة وسط بين التحليل والتفسير، فهو تفسير عندما يقوم الباحث بتفسير المعاني عبر متتالياته في كلام وأفعال الناس، كما أنه من جانب آخر تحليل عندما يستخدم الباحث خبرته لحل الوجوه المحتملة للحوار واستخدام آليات وإجراءات معينة في عملية تحليل القضايا.

ويبدو هذه القضية مثارة عبر تطور بحوث تحليل المحادثة منذ بداياتها حتى الآن، عندما كان التحليل يعتمد على الكلام المكتوب فقط. أما الآن ومع الصوت والصورة والإيماءات وحركة الجسد فإن القضية أكثر صعوبة، كما تزداد صعوبة مع تحليل المحادثات عبر الإنترنت (Paul Ten Have, 2005).

المبحث الخامس

تحليل الخطاب الإعلامي في إطار مدرسة التحليل الثقافي

تأسست مدرسة التحليل الثقافي العام cultural generic analysis في رحاب مركز الدراسات الثقافية المعاصرة بجامعة برمنجهام في بريطانيا عام ١٩٦٤، إلا أن اسهاماتها ترجع إلى نهاية الأربعينيات ومطلع الخمسينيات على أيدي أعلامها ريتشارد هوجارت Richard Hoggart، وتومبسون P. Thompson، وستيوارت هال Stuart Hall لكن ربما تكتسب أعمال رايموند ويليامز Raymond Williams الأكثر أهمية في تأسيس هذه المدرسة التي ربطت بين الثقافة والإعلام في إطار اهتمامها بتحليل معنى الثقافة، وتحول الثقافة إلى سلع تنتج وتوزع على نطاق واسع في ظل المجتمع الرأسمالي حيث ظهر مفهوم الثقافة الجماهيرية أكاديميًا وكيف أن وسائل الاتصال الجماهيري تلعب دورًا بالغ الأهمية في إنتاج وترويج الثقافة الجماهيرية، وعلاقة ذلك بأسلوب الحياة والأيديولوجية والوعي في المجتمع (Munns and Rajan,1995)

وفي إطار اهتمامات مدرسة التحليل الثقافي بالإعلام ظهرت كثير من البحوث التي تناولت بالتحليل الخطاب الإعلامي من زاوية تأثيره في خلق أو تغييب الوعي لدى الجمهور، وكذلك دور الخطاب الإعلامي في عملية التفاعل الاجتماعي وقد طور ستيوارت هال مفهوم التسمية والتصريح والتعبير في اللغة، وأكد أن المعنى هو نتاج العملية الجدلية بين النص والقارئ في سياق اجتماعي وتاريخي معين، وخلص إلى أن وسائل الإعلام لا تعكس الواقع وإنما تقوم بإنتاجه عبر المعاني والاختيارات الأيديولوجية التي تنتجها أو تروج لها (Hall, 1977, pp. 123-129)

واعتمدت بعض الدراسات البريطانية عن الخطاب الإعلامي على الإسهامات العلمية للدراسات الثقافية المرتبطة بمركز الدراسات الثقافية المعاصرة بجامعة

برمنجهام Center for The Contemporary Cultural Studies لاستكشاف الأثر الثقافي والاجتماعي للطرق التي تتغير بها حالة الأنواع الإعلامية مثل الحديث interview الذي يجريه الملقي interviewer أو "الدردشة" وتتبنى هذه الدراسات من أستاذه رايموند ويليامز Raymond Williams النظرة الثقافية (cultural materialism) للنوع الأدبي، الإعلامي حيث ترى هذه الدراسات أن كل ابتكار في النوع الأدبي الإعلامي هو تعبير عن الوعي، كما أنها في الوقت ذاته أشكال من الوعي بالتعبير (Fairclough, 1995).

ورغم صعوبة الاتفاق على مفهوم جامع مانع للدراسات الثقافية ومنهج التحليل الثقافي إلا أن رايموند ويليامز يقول "نستطيع أن نضع تعريفًا دقيقًا من حيث إنها - أي الدراسات الثقافية - تعني دراسات وسائل الإعلام الجماهيري وعدم اجماع الاتصالات والقصص الشعبية أو الموسيقى الشعبية ويرصد ايموند ويليامز التحولات المتسارعة في مجالات الإعلام ومؤسسات وأشكال الثقافة الشعبية في الثمانينيات من القرن الماضي، ومن ثم التطور الذي لحق بالدراسات الثقافية خاصة وأن بعضها أصبح أكثر ترابطًا واستهلاكًا لأشكال ومضامين الثقافة الشعبية ويرى رايموند ويليامز أن النظرية الثقافية يمكن أن تكون مفيدة ومثيرة إذا قدمت نفسها باعتبارها نظرية تشمل كل ممارسات الفنون المتنوعة، أو من الناحية الأخرى كشكل من أشكال النظرية الاجتماعية بعرض نفسها أو تميل لأن تكون بديلاً - بوهم أنها يجب أن تكون بديلاً من إسهام التحليل الاجتماعي والتاريخي أكثر عمومية (ويليامز، ١٩٩٩، ص ص ٢٢١ـ٢٢٨).

وأدى السعي الدؤوب للدراسات الثقافية لملاحقة التحولات المتسارعة في مجال تكنولوجيا الاتصال والإنتاج الثقافي والفني إلى ظهور اتجاهات تربط بينها وبين تيارات ما بعد الحداثة، حيث يرى رايموند ويليامز أن زمن الحداثة الواقعية في سبيله إلى الانتهاء بل إذ رجعنا إلى الوراء إلى العرض الذي قدمه التعبيريون لنهاية السبعينيات وأوائل الستينيات من القرن العشرين لأمكن لنا أن نلاحظ

ذات اللحظة التي أحس فيها معوف الحداثة من حيث هو صدمة مباغتة أو تمزق في نسيج الخبرة ويمضي من أمثالي مثل ريموند ويليامز قد نظر إلى التليفزيون كموضوع سياسي يجمع بين الشعبية وتكنولوجيا ثقافية واحدة، وفي رأيه أن الكثير كما ندعوه بعد الحداثي إن هو ببساطة تكوين حداثي (لوبي مهكي، ١٩٩٩، ص ص ٤١ – ٤٢)

وفي المجال الإعلامي يستفيد منهج التحليل الثقافي – كما يقول فيركلاو – من أبحاث جوفمان (Goffman) حول كيف يخاطب المذيعون بالراديو جماهير المستمعين، كما يستفيد من التوجه في تحليل المحادثة نحو بناء المعاني والعلاقات الاجتماعية في الحديث، والتي طورها هاليداي ومونتجومري ويميز مونتجومري Montgomery بين تحليل مادة الحكاية أو القصة المذاعة وبين تحليل عرضها الخطابي، ويتضمن تحليل العرض الخطابي للحكاية أو القصة الجوانب الروائية الناتجة عن تحويل رسالة خاصة إلى قصة عامة كما يغطي هذا التحليل الجوانب الموجهة نحو استقبال الجمهور للقصة، ويتم التعارض بشأن عوامل التوتر التي تتصف بها الثقافة الإعلامية على سبيل المثال يتم التعبير بشكل محسوس عن التوتر بين الطبيعة العامة لنتائج الإعلامي والظروف الخاصة لاستقبال الإعلام. (Scannell, 1996)

لقد حاول المنهج الثقافي الشامل الربط بين التغيرات التي حدثت في الأنواع الإعلامية في الإذاعة والتليفزيون وبين تطور مفهوم المجال العام Public Sphere ، والذي صاغه هابرماس ويقصد به ساحة اللقاء والصراع بين الدولة والمجتمع المدني، والميدان الذي يتوسط بينهما، وهذا المجال العام هو الإطار الذي يظهر فيه الرأي العام نتيجة الجدل والنقاش والصراع بين طبقات المجتمع، وبين المواطنين والدولة (Habermas, 1989, pp.1 12; 27-43)

وإذا كان هابرماس قد ناقش أزمة المجال العام في ظل السيطرة الرأسمالية، فإن هناك تفاعلات معقدة يلعب الإعلام فيها دوراً مؤثراً من حيث تفعيل قدرات المجتمع المدني في مواجهة الدولة في هذا الإطار سعى منظرو التحليل الثقافي إلى

مناقشة الأشكال المختلفة لبرامج الإذاعة ودعم تطور الإذاعي في بناء المجال العام، مع الاهتمام في آن واحد بالتفاعل interaction بطريقة عرض المادة الإعلامية واستقبالها من قبل الجمهور

وقام طولسون Tolson بدراسة عن تطور أنواع الحديث interview في البرامج التلفزيونية والبرامج التي تستضيف متحدث talk shows ويوضح Tolson أن التطور الشامل لطريقة إجراء الحديث يشير إلى تجزئة الجماهير المستهدفة وتسمية "الجمهور العام" general public " داخل " المجال العام " public sphere " للإذاعة. كذلك توضح أبحاث طولسون أن تجارب الخلط بين الأشكال الإذاعية (الحديث، المنوعات، الكوميديا) وبين الأنواع المرتبطة بها في صورة نصوص مختلطة ومتداخلة يرتبط بالتوجه نحو توسيع نطاقًا في مجال التعبير الثقافي

من جانب آخر تأثرت الدراسات الثقافية بالفكر الماركسي التقليدي وبالمدارس النقدية، خاصة مدرسة فرانكفورت، وكان لنظرية ألتوسير تأثير كبير على مناهج الدراسات الثقافية في مجال دراسات الاتصال خلال السبعينيات من القرن العشرين، وكان تركيز البحوث الثقافية على تحليل النصوص - وبصفة رئيسية النصوص الإعلامية - ينصب على إنتاج النص واستقباله، حيث تعتبر البحوث أن المعنى، والتأثير الأيديولوجي للنصوص أمر مُسلم به، ويتم التعامل مع المعاني كما لو كانت محددة وتكون مزدوجة في النصوص، ويتلخص دور الجمهور المستقبل في فك شفرة النص وإدراكها على نحو سلبي، أو ما يعرف بالتلقي السلبي من قبل الجمهور

وكانت الدراسات الثقافية متأثرة بشدة بأفكار ألتوسير التي ترتكز على فكرة وجود أيديولوجية منفردة هي الرأسمالية التي تسود المجتمع ولا تترك مجالاً فعليًا لمقاومة فعالة، بل يحمي التسليم بفرضية لأيديولوجية الرأسمالية المهيمنة والجمهور المتلقي السلبي للرسائل الإعلامية التي تجسد تلك الأيديولوجية. ومع نهاية السبعينيات من القرن العشرين خضعت وجهة نظر ألتوسير للنقد من نواحي

مختلفة أبرزها إمكانية مقاومة الرسائل الأيديولوجية المقدمة للشخص المتابع إلى حرية وفاعلية الأشخاص في رفض أو قبول تلك الرسائل أو تفسيرها بشكل خاص يتصل بالخصوصية الثقافية والاجتماعية لكل فرد.

وفي هذا الصدد، وكرست المجموعة الإعلامية بمركز الدراسات الثقافية المعاصرة في برمنجهام، بقيادة ستيوارت هال Stuart Hall على نقد عملية استقبال النصوص الإعلامية، وطبقًا لنظرية هال Hall عن التشفير Encoding وفك التشفير Decoding فإن المتلقين قادرين على تفسير أو فك شفرة الرسائل بأكواد (شفرات) مختلفة عن الكود المقصود أصلا في نصوص الرسائل المقدمة إليهم عبر وسائل الإعلام. ويرتكز منظور هال Hall – من بين أشياء أخرى – على نظرية جرامشي Gramsci عن الهيمنة Hegemony التي تسبب قدرًا معينًا من القوة أو الفاعلية لجميع مجموعات الاجتماعية فيما يتصل بإنتاج المعنى والغموض بشأن تفسيره.

واليوم، هناك اتفاق عام في مجالات الدراسات الثقافية وبحوث الاتصال وتحليل الخطاب بأن فرضية الأيديولوجية المهيمنة the dominant ideology thesis تقلل من شأن قدرة الأفراد على مقاومة الأيديولوجيات. في المقابل، تذهب بعض الإسهامات في مجال الدراسات الثقافية وعلم الاتصال إلى المبالغة في تقدير قدرة الأفراد على مقاومة الرسائل الإعلامية، ولكن تحليل الخطاب يساعد في اعتبار أهم الدور الذي تلعبه الملامح النصية في وضع حدود على كيفية فهم المتلقين للنص والغموض بشأنه.

المبحث السادس

الخطاب الإعلامي ومنهج تحليل الخطاب الاجتماعي الإدراكي

ارتبط هذا المنهج بأعمال الباحث الهولندي فان ديك Van Dijk التي ركزت على تحليل الأيديولوجية والخطاب السياسي والخطاب الإعلامي. وقد ربط فيها فان ديك بأحكام وبمنهج تكاملي بين الجوانب النحوية والتركيبات اللغوية والسردية والإدراكية في دراسة النص بالإضافة إلى استخدام مناهج تحليل الخطاب.

ويرجع هذا الربط التكاملي بين المستويات الاجتماعية وتحليل الخطاب إلى النشأة الأولى لفان ديك الذي اُعتبر حتى السبعينيات من القرن العشرين - وقبل تحوله إلى مجال تحليل الخطاب - واحدًا من أبرز الباحثين في مجال التحليل النصي الاجتماعي، بل كان فان ديك من أهم الأصوات المطالبة بأن تقوم النظريات النصية وتحليل الخطاب الإعلامي بالأخذ في الاعتبار النصوص ذات الصفة وسياق النص على الدراسة ولم تسمح أيضا تلك النظريات والتحليلات بُعدًا كميًا للسماح للمحلل باستنتاج خلاصة ممثلة للواقع من هنا دعا فان ديك إلى الجمع بين المؤشرات الكمية والكيفية في تحليل الخطاب، كي توسع في تحليل عينات كبيرة نسبيًا من الأخبار والمواد الإعلامية (Langer,1998).

ويوصف منهج فان ديك حاليًا وعلى نطاق واسع - بالمنهج التكاملي التطوري في تحليل الخطاب، حيث قدم نماذج للتحليل النصي على أساس منهج تطويري approach generative لدراسة النص من النواحي النحوية والتركيبات الروائية، ثم أدخل فان ديك مفهوم " الفصل " في منهجه للدراسة الجوانب النحوية في النص. (Van Dijk,1997).

كما أصبح من خلال اهتمامه بالبنية الكبرى macro-structures مهتمًا بالخطابات المعقدة. وتتبع فان ديك اتساع مجال أبحاثه في الثمانينيات من القرن العشرين

لتشمل التكوينات الخطابية discursive حيث سعى فان دايك إلى تطبيق منهج منظم systematic لتحليل الخطابات الإعلامية، مع الأخذ في الاعتبار مختلف مستويات والأبعاد التي يجب إخضاعها للتحليل في المواد الإعلامية المختلفة على سبيل المثال (التصميم الكلي لمادة مطبوعة - التعبيرات البيانية - ارتفاع وانخفاض الصوت عند الكلام - المظاهر غير الكلامية - تركيبات الجمل - المفردات المختارة - الآليات البلاغية - الدلالات اللفظية - إلخ).

وفي نهاية الثمانينات قدم دايك نظرية جديدة تتضمن عدة فروع علمية عن الأخبار في الصحافة، وتسعى هذه النظرية لوصف وتحليل عملية إعادة إنتاج الأفكار المختارة التي في وسائل الإعلام، وسوء استخدام القوة، وإعادة إنتاج عدم المساواة من خلال العمليات الأيديولوجية في المجتمع، وعبر وسائل الإعلام.

وتستند دراسات فان دايك التجريبية empirical على جمع كمية كبيرة من المقالات ومجموعات متكاملة من النصوص التي تتناول موضوعًا معينًا، وتهدف تلك الدراسات إلى توضيح أن الأبنية المجتمعة تؤسس وتأخذ الطابع الشرعي وتصبح مؤكدة أو مهددة بواسطة النصوص والأحاديث الإعلامية.

ويهتم فان دايك بصفة أساسية بالتنظيم الشامل لنصوص بما يقتضي التفسير المتناسق منطقيًا لكل جزء من النص خاصة الجمل، فالإطار الأعم للمفهوم المختلف يرتبط بنظرية شاملة للعمليات الاجتماعية الإدراكية، وأساس هذه النظرية هو افتراض اعتماد إنتاج واستقبال النصوص على النماذج والرسومات الخيالية أو الافتراضية schemata الإدراكية التي يطلق عليها فان دايك مصطلح "البنيات الفوقية" superstructures.

ويرى فان دايك أن هذه النماذج عبارة عن أيديولوجيات فردية وجماعية وتمثل النصوص الإعلامية مركز تجمع ووسيلة لإظهار هذه النماذج الافتراضية schemata الإدراكية، وتمثل هذه النماذج الافتراضية حلقة مفقودة بين النص والمجتمع وبين

الأبنية الخطابية والأبنية الاجتماعية discourse structures and social structures وتخضع هذه الأبنية ذاتها للتأمل من خلال مساحة البينية بين الإدراك الشخصي والإدراك الاجتماعي، وبالتالي يقترب علم دلالات الألفاظ الخطابية وتطورها من نظريات العقل الاجتماعي والنماذج الاعتراضية الإدراكية.

من هنا يبدو من المنطقي أن تكون الأشكال البنيوية والمعاني الكلية لنص إخباري غير تحكمي، ويتأثر إلى حد كبير بخبرات روتينية ومهنية للصحفيين في محيط مؤسسي من ناحية، وبالمعتقدات الإدراكية الفعالة لنصوص الإخبارية من جانب كل من الصحفيين والقراء من ناحية أخرى " (Van Dijk,1997)، أي أن فان دايك يركز على عمليات إنتاج وفهم الأخبار والنصوص الإعلامية، والعلاقات بين عملية الفهم وممارسات الاجتماعية الأوسع نطاقًا في المجتمع.

ويميز فان دايك بين مستويين من التنظيم الشامل للنصوص

المستوى الأول: البنيات الكلية موضوعية، ويعرف ويصنف على أساس الموضوع، وعلى مستوى دلالات الألفاظ، وتؤسس البنيات الكلية الموضوعية Topical macro structures على قدرتنا على اختصار وتلخيص كل أنواع المعلومات بما في ذلك المعلومات المعقدة، في مقترحات كلية تعبر عن فكرة theme أو موضوع النص كله.

ويقوم فان دايك بتعريف ثلاث قواعد لعمليات التلخيص هي

أ- حذف كل المعلومات غير ذات الصلة

ب - التعميم الذي ينسج مقترحًا كليًا عامًا عن طريق التجريدات من المقترحات الجزئية المختلفة

ج- وأخيرًا البناء، حيث تدمج المقترحات الجزئية لتكوين نسق معين، وتستبدل بمقترح كلي جديد

والمستوى الثاني: البنيات العلوية التخطيطية schematic superstructures، والتي تعتبر معايير شكلية، وتقوم هذه المعايير بتنظيم المعنى الشامل للنصوص بواسطة علاقات وظيفية بين القضايا الجزئية والكلية للنص، وتميل هذه العلاقات إلى اتباع قواعد مقررة في الأنواع المختلفة من النصوص وتتضمن الفئات والقواعد الوظيفية.

واعتمادًا على مفهوم البنيات الكلية والجزئية، ركز فان ديك في أبحاثه التجريبية على تحليل الموضوعات والتماسك المنطقي والتركيبات الفكرية، وأدوار الفاعل roles actor ودور وخلفية منتج النص والملامح الأسلوبية للنصوص، بالإضافة إلى التركيبات الرمزية والجملية. وبناء على دراسات تجريبية يرى فان ديك أن المقالات الإخبارية تبنى وفقًا لمخطط إخباري معين يقوم بتحديد إنتاج واستقبال الأنباء، وفي هذا المخطط تصبح كل فئة جزءًا من تسلسل هرمي عام، وتصبح كل فئة دورًا وظيفيًا أو جدليًا، أو الاثنين معًا في بناء المقال وتحقيق أهدافه.

ويعتقد دلينجر Dellinger أن دراسة فان دايك للتمييز العنصري في الصحافة تقدم منهجًا مفصلاً لتحليل الخطاب في مجال الدراسات الإعلامية خاصة وأن فان دايك يركز على محتوى النص من وجهة نظر متعددة الفروع العلمية فعند استخدام تحليل الخطاب مع منهج تكاملي متعدد الفروع العلمية لدراسة النص يصبح أداة في يد الناقد لدراسة الاتصال في إطار سياقات اجتماعية ثقافية (Dellinger, 1995).

ورغم البدايات الأولى لفان ديك كباحث في اللغويات الاجتماعية إلا أن أعماله الأخيرة تمثل انفلاتًا عن نظريات ومناهج التحليل اللغوي، حيث تركز على تحليل هياكل النصوص في إطار السياقات الإدراكية أو التاريخية أو الثقافية أو السياسية إن منهج فان ديك لا يقتصر كما هو الحال في اللغويات على دراسة الهياكل والمعاني السطحية المجردة أو المجردة من سياقها الإدراكي أو المجتمعي، ولكن على العكس فإنه عند المبدأ يرى أن التحليل الهيكلي يكون من الممكن - وفقًا لمنهجية

فان ديك الاستمرار في التحليل عن طريق إنشاء علاقات مع سياق النص " فحص يهتم بالعمليات العقلية لفك الرموز والتفسير والتخزين والتصوير في الذاكرة، كما يهتم بدور المعارف السابقة ومعتقدات الفرد في عملية الفهم المشار إليه " (Dellinger, 1995)، الأمر الذي أكد على أهمية الجوانب الإدراكية، وجعل كثيرًا من الباحثين يعتبرون أن الجوانب الإدراكية واللغوية هي أهم ما يميز منهج فان ديك في تحليل الخطاب.

وتلعب الايديولوجية أيضًا دورًا جوهريًا في المنهجية التحليلية لفان دايك إذ يعتقد أن الايديولوجيات أطر تفسيرية تقوم بتنظيم مجموعات من المواقف بشأن عناصر أخرى من عناصر المجتمع الحديث. فالأيديولوجيات تمثل بالتالي الأساس الإدراكي لمواقف مجموعات مختلفة داخل المجتمعات، كي تمثل وسيلة لتعزيز أهدافها ومصالحها الذاتية.

ويقدم فان ديك مخططًا من العلاقات المتشابكة بين كل من الأيديولوجية والمجتمع والإدراك والخطاب، ففي داخل الهياكل الاجتماعية يحدث التفاعل الاجتماعي، ويتقدم هذا التفاعل الاجتماعي في شكل النص الخطاب الذي يتم إدراكه وفقًا لنظام الإدراك/ الذاكرة، ويتكون هذا النظام الذاكرة system/memory من ذاكرة قصيرة الأجل، حيث تتم عملية استراتيجية تتمثل في فك الرموز والتفسير بينما تعمل الذاكرة طويلة الأجل على حفظ المعرفة الاجتماعية الثقافية التي تتضمن معرفة اللغة والخطاب والاتصال والأشخاص والمجموعات والأحداث موجودة في صورة نصوص مكتوبة scripts. كما تمكث مواقف الاجتماعية في الذاكرة طويلة الأجل وتقدم مزيدًا من الإرشادات لفك رموز النصوص ويمكن القول أن هذه المواقف الاجتماعية تشمل مجموعة متنوعة من الأيديولوجيات التي تمتزج معًا لإنشاء الأيديولوجية الشخصية الذاتية للفرد والتي تتفق مع هوية الفرد وأهدافه ووضعه الاجتماعي وقيمه وموارده.

ويعود فان ديك إلى هذه العملية التي تتمثل في وضع إطار حول المعتقدات

والآراء التي تخدم مصالح مجموعة معينة بسبب صلبة نهائية من الناحية الاجتماعية أو الاقتصادية قد يرغم بعض الأفراد بالقوة أو بالإقناع، على التصرف ضد ما يحقق أفضل مصلحة لهم ، وذلك على عكس ما يذهب إليه كثير من نقاد كسيين ويعكس مثل النموذج النقدي الذي يعرب دور الإعلام في المجتمعات الحديثة وفقًا للمذهب الحتمية التي يقول بأن أعمال الإنسان والتعريب الاجتماعية هي ثمرة عوامل لا سلطة للإنسان عليها، كذلك يرى خان ديك أن الأيديولوجيات هي أساس أشكال زائفة من الوعي، كما هو الحال بالنسبة لكثير من النظريات التقليدية عن الأيديولوجية

ثم ذلك، فإن إمكانية وجود اختلاف بين أيديولوجية المجموعة وبين مصالحها يعني ضمنيًا أنه يمكن أيضًا إعادة تشكيل علاقات القوة داخل المجتمع وإضعافها والتغلب عليها على المستوى الأيديولوجي وبعبارة أخرى، فمن أجل التحكم في الآخرين هناك طريقة في منتهى الفعالية تتمثل في محاولة التحكم في مواقفهم الجماعية من خلال الإقناع وتزييف الوعي بدون اللجوء إلى القوة أو القهر المادي، وفي ظل تلك الظروف سوف تتصرف جماهير القراء أو المستمعين بمحض إرادتها الحرة وفقًا لمصالح أصحاب القوة

خلاصة القول إن نظرية فان ديك مثل كتابات (روداك Wodak) و (كريس Kress) تعني ضمنيًا أن ممارسة القوة في المجتمعات الحديثة الديمقراطية لم تعد تعتمد على الإكراه بالدرجة الأولى بل على الإقناع، أي أصبحت عملية أيديولوجية تقوم على ما يطلق عليه أحيانًا القوة الناعمة أو الإكراه الطوعي، وهي الفكرة التي كان المفكر الإيطالي أنطونيو غرامشي هو أول من تحدث عنها.

أما العنصر الأساسي الآخر في نظرية فان ديك فيرتبط باستخدامه منهج يتناول (أي مرتبط بثقافتين أو أكثر) لتحليل الإعلام يعتمد على التحليل المنتظم لتضمينه حيث إن الصحفيين ومستخدمي وسائل الإعلام الآخرين يمتلكون نماذج ذهنية بشأن العالم، وبالتالي يكون النص في الواقع مثل جبل جليدي من المعلومات وقمة

هذا الجبل هي فقط التي يعبر عنها فعليًا بالكلمات والجمل. أما الباقي فيفترض أنه مكون من الصور المكتوبة المعرفية والنماذج المعرفية لمستخدمي وسائل الإعلام، وبالتالي يتم عادة دون الإفصاح عنه. وبناءً على ذلك، نخلص من ذلك إلى أن تحليل المعنى الضمني مفيد جدًا في دراسة الأيديولوجيات التي تشكل أساس النص، أو بكلمات أخرى، يتضح من منهج فان دايك أن هناك رسائل ضمنية تبث من خلال نص وهيكل نشرة الأخبار التليفزيونية، لكن ما نراه على السطح ما هو إلا "قمة جبل الثلج".

ومن ناحية أخرى فإن اتباع مناسبات معينة وإضفاء شكل معين على الأنماط الإذاعية يعطي بعدًا آخر للدراسات الإعلامية، حيث يحمل هذا البعد الآخر في طياته رسائل مفهومة ضمنيًا. لكن هذا البعد الآخر لم يخضع للملاحظة والدراسة إلا مؤخرًا، وذلك بسبب انتشار الإذاعات الأجنبية من خلال تكنولوجيا الأقمار الصناعية والبث المباشر. ففي معظم الثقافات الحديثة تأخذ نشرة الأخبار التليفزيونية المألوفة شكلاً محددًا يظل مستخدمًا - مع تعديلات طفيفة فقط - لعدة عقود زمنية.

ويعد التعود على نمط معين من إذاعة الأخبار عبر سنوات كثيرة يميل المشاهدون والمستمعون إلى إهمال الرسائل التي تصاحب محتوى الأنباء. بعبارة أخرى يميل ترميز الأنباء التليفزيونية وفك رموزها من جانب الجمهور إلى اتخاذ شكل معين، وذلك للدرجة تجعل كثيرًا من الرسائل المتضمنة في الأسلوب الإذاعي تمر دون إثارة الاهتمام بالنسبة لثقافة ما، بينما يتم تفسير تلك الرسائل بشكل مختلف وربما تفسيرها أو عدم فك رموزها من جانب ثقافة أخرى.

فكل من المذيعين والجماهير يتعودون أن يتعرفوا على الأسلوب المألوف الذي يطبع نشراتهم الإخبارية التليفزيونية بنمط معين، ولكن اليوم ومن خلال مواقع الإذاعات الدولية عبر الأقمار الصناعية ونظام الكابل، أصبح من الممكن الاطلاع - في صحبة جمهور أجنبي من المشاهدين - على كثير من نشرات الصيغ المتبعة كنوع

من الطقوس المعتادة والمفهومة ضمنيا، وتحويل تلك الصيغ إلى ظواهر مرئية. أي أن الجمهور بشكل أصبح بمقدوره الاستماع إلى أو مشاهدة صيغ وأنماط حديثة من السرد الإخباري، ما يفتح مجالات جديدة لإدراك وفهم المضامين الظاهرة والكامنة في الرسائل الإعلامية.

خلاصة القول: تعتبر نظرية فان دايك من النظريات الأكثر تأثيرًا على الأبحاث الحديثة في مجال تحليل النصوص الإعلامية والخطاب الإعلامي، ولعل أهم إسهامات فان دايك هي إعادة الاعتبار للبحث المنظم والكمي الموسع للنصوص الإعلامية وسياقها الإدراكي والمجتمعي، وإضافة لتطويره نظرية تجمع بين تحليل النصوص وبين الاهتمام المتنامي بدراسات الاستقبال reception studies، وذلك عن طريق تقديم وصف أدق لكيف تسهم القواعد النصية لخطاب لإنتاج واستقبال الأخبار.

وثمة بعدٌ آخر ومهم تطرق إليه فان دايك خاص بالجذور التاريخية والفلسفية لتحليل الخطاب، حيث يقول: " يمكن إرجاع تحليل الخطاب تاريخيًا إلى البلاغة الكلاسيكية. ففي الستينيات فقط من القرن العشرين تم إدراك أن البلاغة الكلاسيكية لديها المزيد لتقديمه، عُرفت البلاغة بالبلاغة الجديدة وبدأت تلعب دورا في تطوير التحليل التركيبي للخطاب. ففي الدراسات الأدبية على سبيل المثال تفهم البلاغة في أحيان كثيرة بمعنى موسع باعتبارها العلم الذي يتناول كافة جوانب الكتابة أو المحادثة الإقناعية، وبهذا المعنى تصبح البلاغة الجديدة مطابقة تقريبًا لجزء كبير على الأقل من تحليل الخطاب " (Van Dijk,1997)

لكن، عم نجاح النظرية الاجتماعية - الإدراكية socio-cognative theory في تحليل الأخبار باعتبارها خطابًا، كانت هناك تعقيبات نقدية على هذا المنهج تتمثل في الغالب بالتطبيق التجريبي له، والتركيز على التمثيل الاجتماعي ودور الأيديولوجيه في بناء وإدراك الخطاب، والسؤال المطروح هو: هل يمكن أن يقبل

أصحاب النظريات الاجتماعية طريقة فان دايك في التعامل مع البيانات النصية على أنها ذات قيمة تمثيلية للواقع، وأنها مفيدة للتعميم عندما يزعم أنه يضع إطارًا نظريًا جديدًا لفهم العلاقة بين الأيديولوجية والنص؟

بالإضافة إلى ذلك يركز منهج فان دايك على البيانات الكلية الموضوعية الموجودة بالخطاب، وبالتالي لا يأخذ هذا المنهج في الاعتبار نسيج الخطاب، أي ما يمكن أن يكون موضوعًا في الخطاب وما لا يمكن قوله (Frandsen,1996)، وذلك بهدف البعد عن أي درجة من درجات التأويل. وبصفة عامة يلاحظ أن هناك عددًا محدودًا من الأبحاث استخدم الإطار النظري والمنهجي لفان دايك، ومن ثم لا يمكن الوثوق في الإمكانيات التطبيقية لمساهمات فان دايك، لكن حتى لا أظلم فان دايك يجب أن أقر أن معظم الأطر النظرية والمنهجية في مجال تحليل الخطاب لم تستخدم على نطاق واسع وعبر ثقافات ومجتمعات مختلفة على المستوى الدولي.

ويرى فيركلاف أن فان دايك قام بتطوير نموذج لتحليل الأخبار المنشورة في الصحف بصفة خاصة باعتباره خطابًا مكونًا من ثلاثة أبعاد هي: النص وممارسة الخطاب والممارسة الاجتماعية الثقافية، ويهتم التركيز على ممارسة الخطاب وصلته بربط التحليل النصي بالتحليل الاجتماعي الثقافي، ويتابع فيركلاف " إن أبحاث فان دايك مثل الدراسات السيميولوجية الاجتماعية أنجزت انتقالاً مهمًا من تحليل النص وهو مجال اهتمام اللغويات الحديثة إلى تحليل الخطاب " (Fairclough,1995, p. 29)

في هذا السياق تلعب الأيديولوجية دورًا جوهريًا في المنهجية التحليلية لفان دايك، فالأيديولوجيات من وجهة نظره هي أطر تفسيرية تقوم بتنظيم المواقف، وتعتبر أيضًا أساسًا للإدراك، واهتم فان دايك بعملية التفسير الإثني في الصحافة صورة في إطار الثقافة الواحدة أو بين ثقافات متعددة، كما ركز على قضايا الإدراك متأثرًا بمفهوم فيسك Piske عن الإدراك، حيث أشار إلى أن الصحفيين ومستخدمي وسائل الإعلام يمتلكون نماذج ذهنية بشأن العالم

والشاهد أن فان دايك ركز على الخطاب الإعلامي المنشور في الصحف أكثر من بقية وسائل الإعلام، خاصة التليفزيون، كما ركز على التحليل اللغوي وأهمل عملية التناص، أي كيفية بناء النصوص من خلال تكوينات الخطابات والأنواع الأدبية السابقة. كذلك أهمل ممارسات صنع الأخبار واستقبالها باعتبارها عملية مستمرة تسهم في إعادة إنتاج علاقات الهيمنة وأيديولوجيات التمييز، مع أنه لم يهتم بتنوع وعدم تجانس تلك الممارسات (Fairclough, 1995, p. 30). إلا أن إسهامه المهم تمثل في تحديده لمفهوم وأبعاد التحليل النقدي للخطاب وعلاقاته بالدراسات اللغوية وبالنظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، وإقراره بتعدد مجالاته وتنوعها، ومن ثم ضرورة استخدام مناهج وأطر نظرية تكاملية (Van Dijk,1998).

المبحث السابع

المدرسة الألمانية في تحليل الخطاب الإعلامي

ظهرت في إطار الجامعات الألمانية مدرستان محدثتان في تحليل الخطاب الإعلامي ربما كان أهم ما يميزهما عن المدارس الفرنسية والبريطانية اهتمامهما باللغة والبلاغة وبالاستراتيجيات الجديدة لتحليل الخطاب، ونعرض هاتين المدرستين فيما يلي:

المدرسة الأولى: وتعرف بمدرسة ديوسبرج The Duisberg School وارتبطت بسيجموند ييجر Yager الذي تأثر بأعمال ميشيل فوكو وبمدرسة فرانكفورت وباللغويات النقدية. وقد أسس ييجر منهجه في السبعينات من القرن العشرين على نقد كل من البحث اللغوي التقليدي والبحث الاجتماعي، فاللغويون - كما يقول ييجر - يركزون بحثهم بصفة رئيسية على النواحي الشكلية للغة دون الانتباه إلى مضمون النصوص وأبعادها الخطابية والمحيط الاجتماعي والثقافي للنصوص.

كما انتقد ييجر البحوث الاجتماعية الكيفية لافتقارها إلى نظرية أو طريقة بحث محددة لتناول النصوص. ثم اعتمد على مقولات المدرسة الثقافية التاريخية التي أسسها عالم النفس الاجتماعي فيجوتسكي Vygoutsky في تطوير نظرية تحدد تعريف العلاقة بين الفعل acting والتفكير والاتصال، والعلاقة بين الفرد والمجتمع، وأكد ييجر أن النصوص ليست شيئًا فرديًا فقط، وإنما تمثل نتاجًا شيئًا اجتماعيًا. فالنصوص أجزاء من خطابات فوق فردية over-individual وبالتالي يكون الخطاب عند ييجر مشابهًا إلى حد كبير لتعريف ميشيل فوكو باعتباره تدفقًا في جذور تاريخية من النصوص والأحاديث التي تشكل كل منها المعرفة عبر الزمان.

أما أجزاء الخطاب عند ييجر فهي نصوص أو أجزاء من نصوص تتناول موضوعًا معينًا أو فكرة معينة، ويشكل كل عدد من أجزاء النصوص سلسلة خطابية يمكن وضعها على مستوى خطابي واحد أو عدة مستويات خطابية على

سبيل المثال في السياسة، والتعليم، والإعلام - وبالتالي تمثل السلاسل الخطابية Discourse Chains تدفقًا للأجزاء الخطابية عن نص موضوع. وتشكل السلاسل الخطابية المتعددة الخطاب البيني Inter-Discourse، الذي يمكن تعريفه بأنه إجمالي كافة الخطابات غير العلمية وأخيرًا يشكل هذا الخطاب البيني، بالإضافة إلى الخطابات العلمية المتخصصة إجمالي الخطاب الاجتماعي.

ويرى ييجر أن تحليل النص هو أول تحليل للخطاب إذا اعتبرنا أن النصوص هي أجزاء من خطاب تمتد بجذوره اجتماعيًا وتاريخيًا، كي يؤكد أن تحليل الخطاب يهدف إلى فك الاشتباك بين نصوص وخطابات معينة لأن النصوص والخطابات متداخلة تتداخل وتحمل "روح" خطابية، ولذلك يصرح ييجر بالتركيز على تحليل العقد الخطابية في النصوص المركزية في سلسلة خطابية ويمكن فهم العقد الخطابية على أنها النصوص الرئيسية أو المركزية التي تحدث عنها ميشيل فوكو، لأن هذه النصوص تشير إلى نصوص سابقة وربما في نفس السلسلة الخطابية أو تتناص مع خطابات أخرى.

ويؤكد ييجر أن إجراءات تحليل الخطاب يجب ألا تظل كمعيار كي يعني وجود وصفة أو خوارزمية روتينية يمكن تطبيقها دائمًا عند تحليل الخطاب، لكن يجب أن يصمم تحليل الخطاب لكي يكون متسقًا مع اهتمامات البحث وأهدافه ومضمون الخطاب محل التحليل في ضوء ذلك يقترح ييجر أن يشمل تحليل الخطاب كلا من تحليل البنية الكلية للخطاب، وتحليل السياق اللفظي وغير اللفظي، والتحليل اللغوي على المستوى الجزئي للنص، وأخيرًا التفسير النهائي والذي يشتمل على تحليل الرسالة والجمهور المستهدف، والإطار الأيديولوجي والاجتماعي للخطاب، والملامح اللغوية لفهم الخطاب، والآثار المقصودة للخطاب (Langer,1998).

المدرسة الثانية: وتعرف بمدرسة فيينا، وترتبط بأعمال أستاذة اللغويات التطبيقية روث وُوداك Ruth Wodak التي تعد أشهر من طوروا من تحليل الخطاب على مستوى العالم في الدول الناطقة بالألمانية، وتقيم وُوداك في فيينا وتكتب

أبحاثها بالألمانية والإنجليزية والفرنسية. ويعتمد منهجها لتحليل الخطاب على الأبحاث اللغوية الاجتماعية وأعمال مدرسة فرانكفورت وميشيل فوكو، بالإضافة إلى الدراسات الثقافية لستيوارت هال، ونظرية رأس المال الرمزي لعالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو.

كما استفادت ووداك من أعمال عالم اللغة الألماني يوتس ماس Utz Mass الذي أثرت أعماله في مجال دراسات الخطاب في الدول المتحدثة بالألمانية، ويعرف ماس الخطابات بأنها أشكال لغوية ترتبط بالممارسة الاجتماعية ويجب بحثها من منظور التاريخ وعدم الاجتماع، مع الاهتمام بالبعد البلاغي والتأويلي. واستنادًا إلى ماس فإن تحليل الخطاب يهدف إلى تسجيل كافة القواعد التي تشكل خطابًا معينًا. ويتم تعريف الخطاب هنا بأنه مجموع كافة النصوص ذات الصلة اجتماعيًا في مجال اجتماعي معين، ويتحدد الهدف النهائي لتحليل الخطاب في إعادة بناء الطرق التاريخية للتفكير.

ويتضمن تحليل الخطاب لدى ماس Mass الآتي:

أولاً: تحديد مضمون وموضوع النص.

ثانيًا: وصف كيفية عرض المضمون، أي التحليل اللغوي وتحليل الأسلوب.

ثالثًا: تحليل معاني الرسالة في علاقتها بالسياق الاجتماعي والتاريخي.

رابعًا: الربط بين الخطوات السابقة من أجل التوصل إلى استخلاصات عامة.

أما ووداك فتميز بين ثلاثة مستويات من التحليل هي المضمون والاستراتيجيات الخطابية والملامح اللغوية، كما تؤكد على أهمية البحث في تاريخ الخطابات من خلال منهج متعدد المستويات، وبذلك تجمع أعمال مدرستها بين التحليل التاريخي والكمي على مستوى الخطاب ومؤسسة الاجتماعية وبين التحليل الكيفي على مستوى التراكيب للنص (Langer 1998, wodak 2001).

ويقدم ساجر Sanger ـ الذي يعتبر أحد المتحمسين لمدرسة فيينا ـ عرضاً شاملاً لمساهمات مدرسة فيينا، حيث يعتقد أن العنصر الرئيسي في فكر مدرسة فيينا هو ما تسميه هذه المدرسة " منهج الخطاب التاريخي " The Discourse Historical Method، والذي يقوم وبشكل منتظم على استخدام كل المعلومات والبيانات المتاحة في تحليل وتفسير الخطاب، علماً بأن هذه المعلومات والبيانات تمثل الخلفية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والتاريخية لممارسة الخطاب؛ أي أن الخطاب لا يمكن تحليله بمعزل عن المجتمع والتاريخ من هنا تعارضت مدرسة فيينا اللغوية التقليدية التي تركز على اللغة بمعزل عن المجتمع والتاريخ.

ومع ذلك تهتم مدرسة فيينا بالأشكال اللغوية للخطابات الاجتماعية على المستوى الجزئي Micro Level مع الاهتمام بتحليل تاريخ أسلوب نشأة الخطاب على المستوى الكلي Macro Level، ومثل هذا التعريف لقدرات وأهداف تحليل الخطاب أدى إلى توافق روث ووداك مع نورمان فيركلاف على تعريف الخطاب باعتباره " استخدام للغة في الحديث (التخاطب) والكتابة ـ كشكل من أشكال الممارسة الاجتماعية "، مع الأخذ بكون العلاقة بين الخطاب وسياقه الموقفي والمؤسسي والاجتماعي علاقة جدلية.

هكذا تفهم مدرسة فيينا تحليل الخطاب باعتباره عملية بحث في آثار الخطاب، حيث يجب البحث في نشأة الخطابات من خلال تحليل متعدد المستويات يستخدم منهج تتعدد فيه طرق البحث، ولهذا الغرض تقوم مدرسة فيينا عادة بالجمع بين التحليل التاريخي والكمي على مستوى الخطاب وممارسته الاجتماعية وبين التحليل الكيفي على مستوى جزئي النص.

وتقدم مدرسة فيينا مجموعة من الإرشادات المنهجية الخاصة بتحليل الخطاب وهذه الإرشادات هي

- ضرورة فهم سياق النص والنصوص ذات الصلة

٢ـ المقارنة بين التقارير والبيانات والوثائق الحية

٣- التفرقة بين أبعاد التحليل (الأبعاد النابعة من الخطاب، و الأبعاد المحيطة بالخطاب)

٤- تحديد طريقة البحث والتصنيف، وذلك في عدة فئات هي:

أ- تعريف شكل و مضمون الخطاب.

ب- تحليل لأهم النيجيات و التقنيات الجدلية

جـ- توضيح الارتباط بين النتائج والملامح اللغوية على المستوى الجزئي (Wodak,1999, pp.185-193)

ووفقاً للأعمال التجريبية لمدرسة فيينا لا تظهر التعبيرات أو الصور فقط في صور نمطية متكررة Stereotypes صريحة على مستوى تركيب الجملة، وإنما تظهر أيضاً ضمنيا على المستوى النصي، لذلك يعتبر تحليل الاستراتيجيات الجدلية Argumentative Strategies على نفس الدرجة من الأهمية على الأقل مقارنة بتحليل الملامح اللغوية على مستوى جزئي. بالإضافة إلى ذلك فإن بعض الملامح المميزة- الفروق على مستوى الاستراتيجيات والتقنيات الجدلية تؤدي إلى نوع من التصنيف أو التمييز الثقافي- الاجتماعي للخطاب.

وعلى عكس فوكو Foucault تقول روث وداك "إن التحليل النقدي للخطاب يهدف إلى الكشف عن عمليات استخدام اللغة لآليات القوة والسيطرة السياسية والتلاعب بالسلطة. وأيضاً استخدام الاستراتيجيات التمييزية على أساس النوع أو العرق) للقهر والاستبعاد. فالتحليل النقدي للخطاب مضطر للمشاركة في مدركات التجربة، ويأخذ جانب الذين يضطرون للمعاناة تحت وطأة الظلم السياسي أو الاجتماعي". (wodak, 2001)

ويرى بيجر أن هذا التعريف أقرب إلى الإعلان السياسي منه إلى التعريف العلمي، لكنه تحقق في الدراسات المعاصرة لمدرسة فيينا، والتي تناولت الخطاب الإعلامي العنصري والتمييز المعادي للسامية في النمسا بعد الحرب العالمية الثانية في

النمسا. وقد كشفت نتائج هذه الدراسات أن الخطابات العنصرية والتحيزية مسبقة في كثير من الملامح الشكلية المشتركة رغم اختلاف مضمون تلك الخطابات، وذلك طبقًا للمجموعات المعنية وطبقًا للمحيط الذي تظهر فيه بعض الإجراءات اللغوية، وبالتالي تصبح طريقة الخطاب التاريخية أداة بيان التصريحات والتلميحات ذات التمييز المسبق الصريح أو الضمني في الخطابات التي تعمل ضد جماعات معينة (Langer, 1995).

واستنتجت ووداك Wodak وغيرها أنه يمكن استخدام منهج الخطاب التاريخي في الدراسات المشابهة، لأن الهويات الوطنية تنتج ويعاد إنتاجها في الخطابات على أساس أوجه الشبه وأوجه الاختلاف، وأيضًا لأن الهويات والصور الشخصية والصور الذاتية Portrays هي إلا إنشاءات خطابية، تعتمد على النواحي الثقافية والاجتماعية والسياسية.

وبالرغم من اهتمام أعمال روث ووداك ومدرسة فيينا بالبعد التاريخي للخطاب وبالاستراتيجيات الخطابية والملامح اللغوية، إلا أن الطابع العام لتلك المدرسة يقترب من حقل اللغويات أكثر من اقترابه لحقل تحليل الخطاب الإعلامي، حيث تمنح ووداك الأولوية للتحليل اللغوي مع الاعتراف بأهمية النواحي التاريخية والاجتماعية، لكن حتى الجانب التاريخي للخطاب يصعب من الناحية المنهجية تحديده والتعامل معه في الخطاب، فأي خطاب له جذور تاريخية قديمة وحديثة، ومن ثم تظهر إشكالية تحديد الحقبة التاريخية التي يجب على الباحث ربطها بالسياق المعاصر للخطاب.

ويلاحظ أن عمله الموقف السياسي في بعض أبحاث مدرسة فيينا قد عرضها لكثير من النقد، لكن ثمة جوانب نقدية أخرى تتعلق بالمنهج المستخدم واستراتيجيات التحليل، حيث اتهمت بالغموض المنهجي وعدم وضوح الإجراءات الخاصة بجمع البيانات، وصعوبة تطبيق الإرشادات المنهجية التي تقدمها هذه المدرسة على بعض أنواع النصوص والخطابات.

المبحث الثامن

التحليل النقدي للخطاب الإعلامي

لم يقتصر التوجه النقدي في تحليل الخطاب على مساهمات المدرسة الألمانية أو غيرها من الاتجاهات الراديكالية ضمن مدارس التحليل اللغوي الاجتماعي بل ظهر تيار عريض يدعي استخدام المنهج النقدي في تحليل الخطاب باعتباره مجمل الممارسات الاجتماعية والثقافية على مستوى المجتمع والدولة، وبطبيعة الحال فإن الخطاب الإعلامي يحتل مكانة مهمة ضمن هذه الممارسات الخطابية

والمفارقة أن ممثلي هذا التيار العريض ينتمون إلى مدارس وتيارات فكرية مختلفة، ولذلك اختلفت مفاهيمهم وممارساتهم للتحليل النقدي للخطاب، ويبدو مقولة التحليل النقدي للخطاب وكأنها نقطة الاتفاق الوحيدة بينهم أو اللحظة التي تجمعهم رغم ما بينهم من اختلافات فكرية ومعرفية عميقة

والملاحظ أن ممثلي التيار النقدي في تحليل الخطاب تأثروا بمرجعيات مختلفة بأعمال جرامشي، وألتوسير، وميشيل فوكو فضلاً عن مساهمات مدرسة فرانكفورت، ما يعني تأثرهم بمفكرين ماركسيين وما بعد حداثيين. من هنا يصعب تصنيف أعمال ممثلي التحليل النقدي للخطاب أو تحديد ملامحه الفكرية، أو حتى ردها إلى أصل فكري واحد فهي محاولات عابرة للأفكار إذا جاز القول في هذا السياق ربما كان تناول أعمال نورمان فيركلاف نموذجًا جيدًا لتوضيح ملامح وأبعاد التيار النقدي في تحليل الخطاب الإعلامي، لاسيما وأن أعمال هذا المفكر البريطاني المعاصر قد أثرت. وما تزال في عشرات الباحثين، كما أن أعماله أولت تحليل الخطاب الإعلامي أهمية كبيرة

وقد عرف فيركلاف كعالم لغة إلا أنه انتقل من حقل الدراسات اللغوية إلى مجال تحليل الخطاب، حيث عمل على تطوير نموذج للتحليل النقدي لكافة أشكال الخطاب بما فيها الخطاب الإعلامي، ثم قام مؤخرًا بتوسيع مجال عمل نموذجه

التحليل بحيث يشمل كافة مجالات العلوم الاجتماعية. فالتحليل النقدي للخطاب هو تحليل للعلاقات الجدلية بين الخطاب – والذي لا يشمل اللغة فقط بل والسيميولوجي والعلامات المرئية – وكل عناصر الممارسة الاجتماعية. ومع ذلك يؤكد فيركلاو أن التحليل النقدي للخطاب يهدف إلى توضيح كيف أن التغيرات في استخدام اللغة تعكس التغيرات الاجتماعية الاقتصادية والتي ترتبط بعلاقات القوة وتقسيمها في المجتمع، لذلك يدعو فيركلاو علماء الاجتماع إلى تحديد أفكارهم ومناهجهم وأدواتهم البحثية لدراسة الخطاب. (Fairclough,2002)

وبغض النظر عن نتائج تلك البحوث أكتفي في هذا المبحث بعرض ومناقشة أعمال فيركلاو المرتبطة بتحليل الخطاب الإعلامي حيث يمكن القول بأن فيركلاو تأثر بشكل واضح بالنظريات النقدية وبأعمال ميشيل فوكو وأعمال جرامشي عن الهيمنة الأيديولوجية، إضافة إلى تأثره الواضح بعالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو. ويتفق فيركلاو مع علماء اللغة جزئيًا في تعريفه للخطاب، ثم يؤكد اختلافه معهم فالخطاب بالنسبة له هو اللغة المستخدمة لتمثيل ممارسة اجتماعية من وجهة نظر معينة، ويرى فيركلاو أن الخطابات تشكل وتعيد إنتاج الهويات الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية وتمثل نظم المعرفة والاعتقاد مستخدمين تلك اللغة، ويعتبر كل خطاب جزءًا من نظام خطابي داخل مؤسسة معينة أو مجال معين من مجالات المجتمع ويضع التحليل النقدي للخطاب نموذجًا للممارسات الخطابية لمجتمع معين أي الطرق السائدة لاستخدام اللغة في هذا المجتمع، باعتبارها شبكات معينة، أطلق عليها فيركلاو أنظمة الخطاب Discourse Orders، ويتكون نظام الخطاب لمؤسسة اجتماعية أو مجال اجتماعي معين من كافة الأنماط والممارسات الخطابية المستخدمة في تلك المؤسسة أو ذلك المجال. كذلك تعتبر نظم الخطاب مجالاً وبؤرة للصراع الاجتماعي وأحد مجالات الهيمنة الثقافية.

ويقرر فيركلاو – نقلاً عن بورديو – أن تسمية التحليل بالتحليل "النقدي" يعد اعترافًا منا بأن ممارساتنا الاجتماعية بصفة عامة، واستخدامنا للغة بصفة خاصة،

ترتبطان بأسباب وآثار قد تغيب عن درايتنا تمامًا في الظروف العادية. بعبارة أخرى فإن الارتباطات بين استخدام اللغة وممارسة القوة كثيرًا ما تكون غير واضحة للناس، ولكن عند تفحص تلك الارتباطات عن قرب تبدو أهمية تحليل العلاقة بين اللغة وعلاقات القوى. وعلى سبيل المثال، فإن طرق إجراء استشارة تقليدية بين طبيب ومريض أو حديث تقليدي بين مراسل صحفي وأحد السياسيين تفرض ضمنًا مجموعة كاملة من الافتراضات المهمة أيديولوجيًا عن الحقوق والواجبات والعلاقات والهويات التي تربط الطرفين، مثل الافتراض بأن الطبيب هو المصدر الوحيد للمعرفة المشروعة طبيًا بشأن المرض نفسه، ومثل الافتراض أنه من مشروع أن يتحدى المراسل الصحفي رجل السياسة بافتراض أنه ممثل عن الجمهور

لكن هذه الممارسات والأدوار والافتراضات البديهية التي يقوم عليها شكل ومضمون علاقات القوى السائدة بين مجموعات من الناس غير واضحة بالنسبة للمشتركين فيها الأمر الذي يساعد على استمرار علاقات القوى السائدة. ومثل كثير من العلماء اللغويين يستخدم فيركلاو كلمة " خطاب" للإشارة إلى استخدام اللغة حديثًا وكتابة ولكن مع توسيع هذا المفهوم كي يتضمن أنواعًا أخرى من النشاط العلاماتي semiotic activity بمعنى النشاط الذي ينتج معاني، مثل الصور المرئية (الصور الفوتوغرافية، الأفلام، الفيديو، الرسوم البيانية)، والاتصال غير الشفوي (حركات الرأس أو الأيدي... إلخ)

ويؤكد فيركلاو أن استخدام كلمة " خطاب" في اللغة يعني الرغبة في البحث في هذا الموضوع، مع الاستعانة بالرؤى العميقة التي أنتجتها النظرية الاجتماعية وذلك باعتبار أن الخطاب هو أحد أشكال الممارسة الاجتماعية

ويقود فيركلاو إلى النظر إلى استخدام اللغة كممارسة اجتماعية يعني ضمنيًا الآتي

أولاً: أن اللغة طريقة للسلوك، كما اعترفت بذلك الفلسفة اللغوية، ودراسة العلاقات بين الأمور وتأويلها ومستخدميها واستخدامها.

ثانيًا: أن اللغة طريقة للسلوك ذات موقع اجتماعي وتاريخي، ولها علاقة جدلية مع النواحي الاجتماعية الأخرى، ويقصد بالعلاقة الجدلية أن اللغة تتشكل اجتماعيًا، كما أنها تؤثر في تشكيل المجتمع، ويستكشف التحليل النقدي للخطاب علاقة الشد بين هذين الجانبين من استخدام اللغة (تشكيل اللغة اجتماعيًا، وتشكيل المجتمع لغويًا) بدلاً من تغليب جانب على الآخر.

كما أن استخدام اللغة في أي نص يؤدي دائمًا في آن واحد في تكوين

(١) هويات اجتماعية

(٢) علاقات اجتماعية

(٣) نظم من المعرفة والاعتقاد (تناظر على التوالي: هويات identities والعلاقات والأفكار أو representations)، فأي نص يقدم مساهمته الصغيرة في تشكيل ملامح المجتمع وثقافته.

وفي حالات معينة قد يبدو أحد هذه الجوانب الثلاثة أهم من الجانبين الآخرين ولكن منطقيًا وعمليًا يمكن أن نفترض وجود تأثير على هذه الجوانب الثلاثة. بالإضافة إلى ذلك، يكون استخدام اللغة بالطرق التقليدية عاملاً تشكيليًا يساعد على الاحتفاظ وإعادة إنتاج الهويات الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية ونظم المعرفة والاعتقادات السائدة، وفي الوقت ذاته يكون استخدام اللغة من خلال الطرق الإبداعية عاملاً تشكيليًا يساعد على تغيير هذه الجوانب الثلاثة. ولكن هل يتغلب التشكيل التقليدي أم التشكيل الإبداعي في حالة بعينها؟ . يجيب فيركلاف: "إن الأمر يتوقف على الظروف الاجتماعية وعلى كيفية أداء اللغة لدورها في ظل تلك الظروف، إن العلاقة بين أي حالة معينة من استخدام اللغة - أي نص معين - وبين أنماط الخطاب المتاحة قد تكون علاقة معقدة وعلاقة إبداعية"

وكما سبقت الإشارة فإن التحليل النقدي للخطاب يضع تصوراً للممارسات الخطابية لمجتمع معين – أي الطرق المعتادة لاستخدام اللغة في هذا المجتمع – باعتبارها شبكات معينة networks أطلق عليها اسم "أنظمة الخطاب orders of discourse. ونظام الخطاب لمؤسسة اجتماعية أو مجال اجتماعي معين يتكون من كافة الأنماط الخطابية المستخدمة بتلك المؤسسة أو ذلك المجال. والفكرة الأساسية في مفهوم "نظام الخطاب" هي إلقاء الضوء على العلاقات القائمة بين الأنماط المختلفة في تلك المجموعة الواردة لنظام معين. فبالنسبة للمدرسة مثلاً، هناك الأنماط الخطابية المستخدمة داخل الفصول وفي الملاعب.

وقد تكون هناك حدود جامدة بين الأنماط الخطابية المختلفة كما يمكن في بعض الأحيان مزج بعضها بسهولة في نصوص معينة. وينطبق نفس الوضع على العلاقات فيما بين نظم الخطاب بالمدرسة ونظام الخطاب بالمنزل، وبالتالي يمكن دراسة هل تتداخل أنظمة الخطاب المختلفة عامة وتتدرج في استخدام اللغة أم هناك فواصل جامدة بينها؟

إن التغيرات الاجتماعية والثقافية تنعكس خطابياً في أحيان كثيرة، وذلك من خلال إعادة رسم الحدود داخل وفيما بين أنظمة الخطاب، وهذه الحقيقة تنطبق على مجال الإعلامي. كذلك تكون هذه الحدود أحياناً بؤرة للصراع والنزاع الاجتماعي. ويخلص فيركلاو إلى اعتبار أن "أنظمة الخطاب" orders of discourse تعتبر أحد مجالات الهيمنة الثقافية المحتملة، حيث تتصارع المجموعات المسيطرة للتأكيد والاحتفاظ بتركيبة معينة داخل وفيما بين أنظمة الخطاب المتاحة.

ويميز فيركلاو بين فئتين رئيسيتين من الأنماط الخطابية المكونة لأنظمة الخطاب هي الأنواع الأدبية والخطابات genres and discourses. فالخطاب هو اللغة المستخدمة لتمثيل ممارسة اجتماعية محددة من وجهة نظر معينة، وتسمى الخطابات discourses بصفة عامة بما تعرفه وبما بناه المعرفة. على سبيل المثال يتم التعبير عن الممارسة الاجتماعية للسياسة بشكل مختلف في الخطابات السياسية الليبرالية

والاشتراكية والماركسية، كي يتم تمثيل المرض والصحة بشكل مختلف في الخطابات الطبية التقليدية allopathic وفي الخطابات الطبية البديلة homeopathic.

وعلى العكس من ذلك يقصد بالنوع الأدبي genre أن يكون استخدام اللغة مرتبطاً بجزء من ممارسة اجتماعية معينة ومكوناً لذلك الجزء، وعلى سبيل المثال فإن إجراء أو تقديم إعلان يختلف بحسب نوع الحديث أو نوع الإعلان، لكن تركيبة الحديث أيا كان نوعه تختلف تماماً عن تركيبة الإعلان أيا كان نوعه.

إنه تحليل أي نمط معين من الخطابات. يبرز في ذلك الخطاب الإعلامي. يستلزم أسلوب التركيز على نقطتين متزامنتين ومتكاملتين وأساسيتين هما:

- الأحداث الاتصالية communicative events
- نظام الخطاب the order of discourse

حيث يهتم المحلل بنص معين مرتبط بأحداث اتصالية محددة، كالمقالة الافتتاحية في جريدة معينة أو فيلم تسجيلي تليفزيوني. ويتركز الاهتمام دائماً في هذا المجال على الاستمرارية والتغيير، أي كيف يبدو هذا النص معيارياً بحيث يعكس أنماط وأشكال formats مألوفة، وكيف يبدو هذا النص إبداعياً بحيث يستخدم موارد قديمة بطرق جديدة؟

ومن ناحية أخرى، يهتم المحلل بالإطار العام the general، أي التركيبة الكلية لنظام الخطاب وطريقة تطوره في سياق التغيرات الاجتماعية والثقافية. فالتركيز هنا على مجموعة الأنواع الأدبية والخطابات التي تشكل نظام الخطاب، والعلاقات المتغيرة بينها وبين نظام هذا الخطاب وغيره من أنظمة الخطاب المجاورة له اجتماعياً.

ويشرح نورمان فيركلاف المقصود بتحليل الأحداث الاتصالية فيؤكد أن التحليل النقدي للخطاب المتعلق بحدث اتصالي هو تحليل للعلاقات القائمة بين ثلاثة أبعاد أو ملامح لذلك الحدث الذي يطلق عليه المصطلحات التالية: نص text، وخطاب discourse، وممارسة اجتماعية ثقافية. وقد تكون النصوص Texts مكتوبة أو

شعوية. وقد تكون النصوص الشفوية مذاعة فقط عبر الراديو أو مذاعة ومرئية عبر التليفزيون. أما مصطلح " ممارسة الخطاب " فيقصد به فيركلاو عمليات إنتاج النص واستهلاك النص، كما يقصد بالممارسة الاجتماعية الثقافية التيارات الاجتماعية والثقافية السائدة، والتي يشكل حدث الاتصال جزءًا منها.

النصوص

يعرض فيركلاو ممارسة الخطاب والممارسة الاجتماعية الثقافية، فيشير بداية إلى أن تحليل النصوص يغطي أشكالاً تقليدية من التحليل اللغوي: تحليل المعجمية ودلالات الألفاظ، والنحو على مستوى الجمل وأجزاء الجمل، وصوتيات النص ونظام كتابته. كما يتضمن هذا التحليل التنظيم النصي فوق مستوى الجملة بما في ذلك كيفية الربط فيما بين جمل النص (تماسك النص)، ويتضمن أيضًا جوانب أخرى مثل: تنظيم إدارة وجهة الحديث عند إجراء الحديث مع الضيوف أو التركيبة الكلية لمقال أو مادة منشورة في صحيفة.

ويهتم تحليل النصوص أيضًا بمعانيها وأشكالها، ورغم أنه قد يكون مفيدًا من الناحية التحليلية المقارنة بين هذين المختلفين، إلا أنه من الصعب في الواقع الفصل بينهما، فالمعاني لابد وأن تتحقق في شكل معين، واختلاف المعنى يؤدي إلى اختلاف في الشكل. ومن ناحية أخرى، من المنطقي أن نفترض أنه عندما تكون الأشكال مختلفة فمن المتوقع وجود اختلاف ما في المعنى.

ويوصي فيركلاو بأهمية النظر إلى النص من وجهة نظر متعددة الوظائف، وبناءً على ذلك يصبح لكل نص، وحتى لكل جملة بسيطة أو جملة مركبة بالنص ثلاث فئات رئيسية من الوظائف، يعنى بكل منها معظم الاختيارات الخاصة بها، وهذه الفئات هي:

- الوظيفة الفكرية Ideational function
- الوظيفة الشخصية (أو البين شخصية) Interpersonal function

- الوظيفة النصية textual function

وهذه الطريقة المتعددة الوظائف تنظر إلى النص تنسجم مع النظرة التكوينية للخطاب، حيث تعطي لنا وسيلة للتحري عن التكوين لأنظمة المعرفة والاعتقاد (الوظيفة الفكرية) وللعلاقات الاجتماعية والهويات الاجتماعية (الوظيفة الشخصية البينية) في النصوص، أو بكلمات أخرى تعد هذه النظرة متعددة الوظائف للخطاب طريقة لفحص الإقرارات representation والعلاقات relations والهويات identities.

ويقدم فيركلاو نموذجًا لتحليل حالة في نص مكتوب، حيث يقول " يجب أن يركز المحلل على كيفية توضيح الجوانب الثلاثة الآتية.

* الإقرارات والطرق المعنية لإعادة وضع الممارسات الاجتماعية في سياق معين (الوظيفة الفكرية). والتي قد تحمل معها أيديولوجيات معينة
* طرق بناء هويتي الكاتب والقارئ (على سبيل المثال، بالنسبة لما يتم إلقاء الضوء عليه، هل يتم إلقاء الضوء على ملامح ودور الهوية أم على الملامح الفردية وملامح الهوية؟
* بناء معين للعلاقة بين الكاتب والقارئ. (على سبيل المثال، هل هي علاقة رسمية أم غير رسمية، أو علاقة وثيقة أم بعيدة؟)"

مثل هذا التحليل مالع خصوصية بالنسبة للأبعاد المعانية كي هو حساس بالنسبة للأبعاد الحاضرة في النص أي بالنسبة للإقرارات أو فئات الشركين أو طرق بناء هوية المشترك أو العلاقات المشتركة التي لا توجد بالنص ويجب أن يكون تحليل النصوص تحليلًا متعدد الجوانب العلاماتية أو السيميولوجية multisemiotic analysis بحيث يتضمن تحليلًا للصور الفوتوغرافية وتخطيط الصفحات والتنظيم الكلي المرئي لها، أو تحليل المؤثرات التصويرية والصوتية في حالة النصوص التلفزيونية والمرئية

- الوظيفة النصية textual function

وهذه الطريقة المتعددة الوظائف تنظر إلى النص تنسجم مع النظرة التكوينية للخطاب، حيث تعطي لنا وسيلة للتحري عن التكوين لأنى أنظمة المعرفة والاعتقاد (الوظيفة الفكرية) وللعلاقات الاجتماعية والهويات الاجتماعية (الوظيفة الشخصية البينية) في النصوص، أو بكلمات أخرى تعد هذه النظرة متعددة الوظائف للخطاب طريقة لفحص الإقرارات representation والعلاقات relations والهويات identities.

ويقدم فيركلاو نموذجًا لتحليل جملة في نص مكتوب، حيث يقول "يجب أن يركز المحلل على كيفية توضيح الجوانب الثلاثة الآتية:

- الإقرارات والطرق المعنية لإعادة وضع الممارسات الاجتماعية في سياق معين (الوظيفة الفكرية). والتي قد تحمل معها أيديولوجيات معينة
- طرق بناء هويتي الكاتب والقارئ (على سبيل المثال، بالنسبة لما يتم إلقاء الضوء عليه، هل يتم إلقاء الضوء على ملامح ودور الهوية أم على الملامح الفردية وملامح الهوية؟
- بناء معين للعلاقة بين الكاتب والقارئ، (على سبيل المثال، هل هي علاقة رسمية أم غير رسمية، أو علاقة وثيقة أم بعيدة؟)"

مثل هذا التحليل مائع خصوصيه بالنسبة للأبعاد المعانية كي هو حساس بالنسبة للأبعاد الحاضرة في النص، أي بالنسبة للإقرارات أو فئات المشتركين أو طرق بناء هوية المشترك أو العلاقات المشتركة التي لا توجد بالنص. ويجب أن يكون تحليل النصوص تحليلاً متعدد الجوانب العلاماتية أو السيميولوجية multisemiotic analysis بحيث يتضمن تحليلاً للصور الفوتوغرافية وتخطيط الصفحات والتنظيم الكلي المرئي لها، أو تحليل المؤثرات التصويرية والصوتية في حالة النصوص المذاعة والمرئية

ومن المسائل الوثيقة التي ينبغي دراستها في إطار هذا التحليل، هي كيفية تفاعل تلك الأشكال والنماذج العلاماتية أو السيميولوجية semiotic modalities مع اللغة لإنتاج المعاني الخطابية، وكيف تحدد تلك التفاعلات نماذج والقواعد الجمالية المختلفة بالنسبة لوسائل الإعلام المختلفة.

ممارسة الخطاب

تمثل أهم إسهامات فيركلاو، هو اهتمامه بعمليات إنتاج واستهلاك النص في آن واحد أي أن ممارسة الخطاب لا تقتصر على إنتاج النصوص بل ترتبط أيضا باستهلاكها أي باستقبال الجمهور وتفسيره للنصوص التي تكون الخطاب، ويذهب فيركلاو إلى أن بُعد ممارسة الخطاب للحدث الاتصالي يتضمن جوانب متنوعة من عمليات إنتاج واستهلاك النص، وبعض هذه الجوانب لها مواصفات مؤسساتية بدرجة أكبر، بينما تكون الجوانب الأخرى عبارة عن عمليات خطابية بالمعنى الأضيق. وبالنسبة للعمليات المؤسساتية institutional فتشمل - على سبيل المثال الإجراءات التحريرية المتضمنة في إنتاج النصوص الإعلامية، بالإضافة إلى اندراج مشاهدة التليفزيون في عادات الأسرة.

أما العمليات الخطابية discourse processes فترتبط بالتحولات التي تمر بها النصوص خلال إنتاجها واستهلاكها. ويستخدم فيركلاو مصطلحي "العمليات المؤسساتية" و "العمليات الخطابية" لوصف هذين النوعين من العمليات المتضمنة في إنتاج واستهلاك النص، ثم يضيف بُعدًا ثالثًا يتعلق بالنواحي النفسية والإدراكية بالنسبة لكيفية توصل الأفراد إلى تأويلات للتعبيرات المعينة أي " العمليات التأويلية " interpretative processes ويعترف فيركلاو بأن فان دايك Van Dijk يستخدم إطار عمل ذا توجه إدراكي بدرجة أكبر، ولكن فكرته تماثل فكرة إطار العمل الذي يقدمه فيركلاو.

ويوضح الشكل رقم ( ) ملخصا لإطار عمل التحليل النقدي للخطاب للحدث الاتصالي، حيث يعبر هذا الشكل عن العلاقات بين الأبعاد الثلاثة للأحداث الاتصالية.

الشكل رقم (٤)





ويعتقد فيركلاو أن ممارسة الخطاب تلعب دور الوسيط بين البعد النصي والبعد الاجتماعي والثقافي وبين النص والممارسة الاجتماعية الثقافية، بعبارة أخرى يرتبط البعد الاجتماعي الثقافي بالبعد النصي عن طريق غير مباشر، وذلك من خلال ممارسة الخطاب.

فلا شك أن الخصائص الاجتماعية الثقافية تشكل النصوص، ولكن ذلك يتم عن طريق تشكيل طبيعة ممارسة الخطاب، أي طرق إنتاج واستهلاك النصوص، مما ينعكس على ملامح النصوص، كما أوضحت بالنسبة للتمييز بين " العمليات المؤسساتية " و " العمليات الخطابية " تشكل ممارسة الخطاب جسرًا يجمع بين المجتمع والثقافة من ناحية، والخطاب واللغة والنص من ناحية أخرى

وكان فيركلاو قد أشار إلى " طبيعة ممارسة الخطاب " the nature of discourse practice، أي التناقض بين العمليات الخطابية التقليدية بصفة عامة وبين العمليات الخطابية الإبداعية creative بصفة عامة والتي تتضمن إما استخدامًا معياريًا للأنماط الخطابية (الأنواع الأدبية والخطابات)، أو مزجًا إبداعيًا بين تلك الأنماط على التوالي

في ضوء ذلك تكون ممارسة الخطاب الإبداعية معقدة نسبياً من حيث عدد الأنواع الأدبية والخطابات discourses الممزوجة معاً وطريقة مزجها. ويمكن لممارسة الخطاب الإبداعية أن تتحول أيضاً إلى ممارسة تقليدية، وعلى سبيل المثال نجد حالياً في الأفلام التسجيلية طرقاً معروفة للتأليف بين الأنواع المستخدمة في تقديم المعلومات والإقناع والدعاية بصورة عامة. من هنا ربما تتحقق ممارسة الخطاب التقليدية في النص عندما يكون هذا النص متجانساً في أشكاله ومعانيه، بينما تتحقق ممارسة الخطاب الإبداعية في النص عندما يكون هذا النص متجانساً نسبياً في أشكاله ومعانيه، أي أن معاني وأشكال الخطاب الإبداعي تكون أقل تجانساً من الخطاب التقليدي.

ويتوقع فيركلاو أن نجد ممارسة خطابية معقدة وإبداعية عندما تكون الممارسة الاجتماعية الثقافية مرنة ومتغيرة وغير مستقرة، كما نتوقع أن نجد ممارسة خطابية تقليدية عندما تكون الممارسة الاجتماعية الثقافية مستقرة وثابتة نسبياً. أي أن فيركلاو يرصد وجود علاقة جدلية بين نوعية الممارسة الخطابية وبين طبيعة الممارسة الاجتماعية الثقافية. من هنا يمكن القول أن النصوص الإعلامية تعتبر مقاييس حساسة للتغير الثقافي، فهي تعكس في عدم تجانسها وما تحمله من متناقضات طبيعة التغيير التي تتسم في كثير من الأحيان بعدم الاكتمال وبالطابع التجريبي لذلك يمكن اعتبار عدم التجانس النصي تجسيداً لتناقضات الاجتماعية والثقافية ودليلاً قوياً عند البحث في تلك التناقضات وتطورها.

ويخلص فيركلاو إلى أن التركيز على الإبداع والتهجين وعدم التجانس الخطابي في تحليل الخطاب الإعلامي يتسق مع طبيعة العصر حيث نعيش فترة من التغيير السريع والمستمر في المجتمع والثقافة، وتلعب وسائل الإعلام دوراً مهماً في تصوير وتشجيع عمليات التغيير الأكثر عمومية، وبالتالي تظل ممارسات وسائل الإعلام في حالة تغير دائم، وينعكس ذلك أيضاً في ممارسات الخطابية لوسائل الإعلام بصفة عامة.

ويطرح فيركلاو نقطة مهمة لكنها تثير قدرًا من الحدس والخلاف تتعلق بطبيعة الإبداع، والعلاقة بين الإبداع والتناص، إذ يرى أن الإبداع في ممارسات الخطابية مرتبط بظروف اجتماعية معينة - ظروف التغيير وعدم الاستقرار، ويمكن أن يكون نمط "الإبداع" مضللاً بما يحمله من دلالة على النزعة الفردية. فالإبداع الخطابي ناتج من الظروف الاجتماعية، وليس إنجازًا من جانب أفراد يتمتعون بصفات (إبداعية) معينة. ثم يقارن فيركلاو بين التحليل النصي للنصوص بالمعنى الواسع الذي سبق استعراضه، وبين تحليل الصياغة المتبادلة لنصوص the intertextual analysis of texts أو ما يعرف بالتناص. ويركز التناص على خط الفاصل بين النص وممارسة الخطاب في إطار العمل التحليلي، كي ينظر الناص إلى النص من منظور ممارسة الخطاب ويتابع آثار ممارسة الخطاب في النص. ويهدف التناص أيضًا إلى حل تشابك الأنواع الأدبية والخطابات المختلفة الممزوجة في النص، وفي أحيان كثيرة يكون هذا الخليط معقدًا جدًا في ظل ممارسة الخطاب الإبداعية.

من هنا يكون السؤال المطروح هو: ما هي الأنواع الأدبية والخطابات المستخدمة في إنتاج النص؟، وما هي آثار هذه الأنواع والخطابات في النص؟ إذ قد نجد في النص الوثائقي (أو الفيلم التسجيلي) مزيجًا من الأنواع الأدبية التي تقدم المعلومات والإقناع والترفيه. وهذا التعقيد - الذي يمثله التناص والذي يحظى بمزج الأنواع الأدبية والخطابات - ينعكس بدوره على النص في عدم تجانس النص والشكل.

في هذا السياق يميز فيركلاو بين التحليل النحوي بطبيعته الوصفية وبين تحليل التناص الذي يميل نحو التأويل. فالملامح المعنوية للنصوص تُوهم التأويل الذي يمكن استخدامه في تحليل التناص. من هنا يمكن القول بأن التناص يمثل نوعًا معينًا من التأويل، أي تأويل يضع النص في موقعه من الأنظمة الاجتماعية لممارسات الخطاب، أي "نظام الخطاب"؛ فهو تأويل ثقافي لأنه يضع النص المعين داخل إطار الثقافة المكونة بشبكات أنظمة الخطاب، بينما التحليل النحوي يركز على ما يوجد على الورق أو على الشريط المسموع أو المرئي في الشاشات بمعنى التحليل في

تحليل التناص على الفهم الاجتماعي والثقافي، وقد يمثل ذلك مشكلة بالنسبة لمن يتوقعون أشكالا أكثر " موضوعية " من التحليل، مع أنه من السهل الإفراط في تقدير موضوعية التحليل اللغوي. ومع ذلك فإن الربط بين التحليل اللغوي للنصوص وتحليل التناص يعتبر إجراءً مهماً لسد الثغرة بين النص واللغة من ناحية، والمجتمع والثقافة من ناحية أخرى.

الممارسة الاجتماعية الثقافية

يقول فيركلاو إن تحليل بُعد الممارسة الاجتماعية الثقافية لحدث الاتصال يمكن أن يتم على مستويات مختلفة من التجريد، فقد يتضمن هذا التحليل سياق الموقف المباشر للحدث، أو السياق الأوسع نطاقا للممارسات المؤسساتية التي يعرض الحدث بداخلها أو في السياق الأوسع منه، أي سياق المجتمع والثقافة، وتكون كل هذه المستويات مهمة لفهم حدث اتصال معين، ويمكن تناول كثير من جوانب الممارسة الاجتماعية الثقافية في التحليل النقدي للخطاب، ولكن قد يكون من المفيد أن نميز بصفة عامة بين ثلاثة جوانب: الاقتصادي، والسياسي (المتعلق بمسائل القوة والأيديولوجية)، والثقافي (المتعلق بمسائل القيمة والهوية).

إن إطار العمل الذي يقترحه فيركلاو يتفق مع اتجاهات مختلفة ومتنوعة لا تخبر بوجه الاهتمام، فيمكن تفضيل التركيز على ممارسة الخطاب، سواء على عمليات إنتاج النص أو على عمليات استهلاك النص، أو يمكن تفضيل التركيز على النص ذاته، ولكن من المهم الاحتفاظ بالنظرة الشاملة تجاه الأحداث الاتصالية.

ويركز فيركلاو على التحليل اللغوي للنصوص، وعلى تحليل التناص، وعلى التحليل الاجتماعي الثقافي الانتقائي، ولكن ماذا يقصد بانتقائية التحليل الاجتماعي الثقافي؟ يجيب فيركلاو: " تعتبر مناقشة الممارسة الاجتماعية الثقافية مناقشة انتقائية لأنني لا أكتب كمحلل ثقافي أو في علم الاجتماع، بل بصفتي محللاً للخطاب له اهتمام بنوع محدد من الخطابات هو الخطاب الإعلامي "

تحليل نظام الخطاب

ويصل فيركلاو إلى ثاني منظورين التوأمين داخل التحليل النقدي لخطاب الإعلامي، وهو نظام الخطاب الذي يقصد به كيفية تركيبة الخطاب من حيث تكوينات الأنواع الأدبية والخطابات والتنقلات داخل نظام الخطاب والتغيرات في علاقته بأنظمة الخطاب المجاورة له اجتماعيا، وهنا كان الإعلام يحتل مركزا متوسطا -حسب كلام فيركلاو- بين نظم الخطاب العامة ونظم الخطاب الخاصة، فإن وسائل الإعلام تحدث تغيرات على الخطاب العام الأصلي من أجل الاستهلاك المحلي.

إن هذا المركز المتوسط والعلاقات الخارجية بين نظام الخطاب الخاص بوسائل الإعلام ونظم الخطاب العامة والخاصة المجاورة له اجتماعيا -مثل أنظمة الخطاب الخاصة بالكتب- يمثلان الأساس لفهم نظام الخطاب الخاص بوسائل الإعلام والعلاقات الداخلية بين الأنواع الأدبية والخطابات المكونة له.

تدخل نظام الخطاب الخاص بوسائل الإعلام يتشكل بواسطة التوتر القائم بين مصادره العامة من ناحية وأهدافه الخاصة من ناحية أخرى، حيث يمثل هذان العنصران قطبين متعارضين بالنسبة للخطاب الإعلامي، لذلك يعاد تشكيل نظام الخطاب الإعلامي باستمرار من خلال إعادة تحديد علاقاته وإعادة رسم حدوده مع أنظمة الخطاب العامة والخاصة المشار إليها، بالإضافة إلى ذلك فإن عمليات التفاوض وإعادة التفاوض بين المهمات الخطابية العامة والخاصة التي تحدث داخل نظام الخطاب الإعلامي لها تأثير على العلاقة بين هذه الممارسات وبين الخطاب العام والخاص بصفة عامة في مجالات أخرى من الحياة الاجتماعية.

وبالتالي فإن البحوث المتعلقة بأنظمة الخطاب الإعلامي لابد أن تتبنى نظرة أوسع نطاقا حيث تمتد حدود هذه الأنظمة إلى داخل التغيرات الرئيسية في المجتمع

والثقافة، وتنطبق تلك الأفكار هنا على سبيل المثال على العلاقة بين نظام الخطاب التثقيفي بدرجة أكبر ويتعلق بإذاعة مادة عامة وبين أنظمة الخطاب التجاري المتعلق بالسوق والنزعة الاستهلاكية consumerism.

إن الفكرة العامة التي يؤكد عليها فركلاو هي أن العلاقة بين المؤسسات والممارسات الخطابية ليست علاقة بسيطة أو واضحة، فالمؤسسات المختلفة تتقاسم في النهاية ممارسات خطابية مشتركة. ويمكن أن نذكر ممارسة خطابية معينة موزعة توزيعًا عبر مؤسسات عديدة على سبيل المثال. وهي تمتد جذور الإعلان في أنظمة الخطاب الخاصة بإنتاج وتوزيع واستهلاك السلع، ولكن الإعلان أصبح أيضًا عنصرًا في أنظمة الخطاب الخاصة بمؤسسات مختلفة مثل التعليم والطب والفنون. لذلك يجب أن يهتم تحليل الخطاب دائمًا بالعلاقات والتفاعلات والتواصلات بين المؤسسات والمجالات الاجتماعية وأنظمة الخطاب المتعلقة بها، ويجب أن يكون هذا التحليل حساسًا برصد أوجه التشابه في التنظيم الاجتماعي والممارسات الخطابية فيما بين المؤسسات المختلفة.

ورغم أن الإعلام قد يمثل حالة واضحة لمثل هذه العلاقات المرنة إلا أن هذه الصفة منتشرة على نطاق واسع اجتماعيًا. كذلك تجدر الإشارة إلى أن الخطاب الإعلامي قد يؤثر في تشكيل أنظمة الخطاب المجاورة له اجتماعيًا كما يتأثر بها، أي أن العلاقة بينهما علاقة جدلية معقدة. وعلى سبيل المثال تتمتع أشكال النصوص التليفزيونية بأهمية ثقافية كبيرة، وتوجد هذه الأشكال كنماذج في العديد من مجالات العامة المتنوعة كالتعليم، حيث نجد شكل الحديث الذي يتم إجراؤه مع شخصية معروفة في إحدى الصحف مستخدمًا على نطاق واسع في مجال التعليم العالي في إطار الكتب التي تعرض لأفكار هذه الشخصية المشهورة، كما نجده أيضًا في بعض المجلات.

ويؤثر الخطاب الإعلامي أيضًا على ممارسات الخطاب في المجالات الخاصة، حيث يقدم نماذج للتفاعل في المحادثات بين الأشخاص في الحياة الخاصة وفي الحياة

اليومية، وقد يكون من الصعب حل التشابك بين العلاقات الخارجية بين أنظمة الخطاب من ناحية وبين العلاقات الداخلية بين الخطابات و لأنواع الأدبية داخل نظام الخطاب الإعلامي من ناحية أخرى، ولكن التفرقة تبقى مهمة في حالة تحليل أنظمة الخطاب ويقرر فيركلاف أن كلا من العلاقات الخارجية والداخلية تتضمن علاقات اختيارية relation choice وعلاقات متسلسلة chain relation

فمن ناحية العلاقات الخارجية، تتعلق العملية بكيف يؤثر نظام الخطاب الإعلامي أو يستوي على الإمكانيات المتاحة في أنظمة الخطاب المجاورة له. أما من ناحية العلاقات الداخلية فالعملية تتمثل بوصف نماذج ممارسات الخطابية البديلة المتاحة داخل نظام الخطاب الإعلامي والشروط التي تحكم الاختيار من بينها.

وتختلف الممارسات الخطابية فيما بينها من حيث وظيفة كل منها فهي تقدم أشكالاً formats متباينة من الأنماط الرئيسية من الإنتاج الإعلامي، وهكذا نجد ممارسات خطابية مختلفة بالنسبة للأنباء والأفلام الوثائقية والدراما والحوارات والبرامج والمسلسلات التليفزيونية التي تعالج مشكلات الحياة الاجتماعية، وبالمثل نجد ممارسات خطابية مختلفة بالنسبة للأنباء المهمة والأنباء الثانوية والتحقيق والمقالات الرئيسية في الصحف.

ويتابع فيركلاف أن مختلف الممارسات الخطابية بحسب وظيفتها يمكن أن يتم على مستويات متنوعة، ولكن توجد أيضًا بدائل بالنسبة لأي نوع معين من الناتج output، وبمجموع خيارات لشروط مختلفة، وبعبارة. "لقد أشرت إلى العلاقات المتسلسلة chain relation حيث الفرصة إمكانية اعتبار الحدث الاتصالي في وسائل الإعلام تسلاسل من الأحداث الاتصالية، وتكون هذه السلاسل داخلية في جزء منها (عملية إنتاج النص داخل مؤسسة إعلامية تعتبر سلسلة من الأحداث الاتصالية، وخارجية في جزء منها أيضًا، ذلك أن مصدر الأحداث الاتصالية يقع

في أحد طرق السلسلة خارج الوسيلة الإعلامية كما هو الحال بالنسبة للأحداث الاتصالية (المحادثات، مناقشات التقارير التي قد تكون النصوص الإعلامية ذاتها مصدرًا لها (Fairclough، 1995).

إن وصف نظام الخطاب في وسائل الإعلام يتعلق بتحديد ما هي الأحداث الاتصالية الداخلية والخارجية التي ترتبط بعلاقات متسلسلة كما يتعلق بتحديد أنواع التحولات التي تمر بها النصوص في انتقالها عبر حلقات هذه السلاسل، وكيف تكون النصوص المبكرة في السلسلة مغروسة في النصوص اللاحقة بها. إن العلاقات الاختيارية choice relations والعلاقات المتسلسلة chain relations تلتقي في تعريف نظام الخطاب، إذ يجب تحديد علاقات الاختيار عند كل وصلة في السلسلة.

ويرى فيركلاف أن تحليل التناص لنص معين يتعدى بعث نشاط الأنواع الأدبية والخطابات الممزوجة في علاقة اختيارية في نظام الخطاب كما يتعلق تحليل التناص أيضًا بعرض العلاقات embedding أي كيف تؤدي التحولات التي تمر بها النصوص في انتقالها عبر السلاسل إلى ترك آثار من شأنها غرس علاقات داخل تلك النصوص.

وفي محاولة التوصل إلى خصائص نظام الخطاب الإعلامي، يوصي فيركلاف ملاحظيه بأن يتذكروا باستمرار سؤالين مهمين قد تكون لهما إجابات مختلفة بالنسبة للأخرى مختلفة من نظام الخطاب الإعلامي المعقد. وهذان السؤالان هما:

(أ) إلى أي مدى تكون ممارسات الخطابية الإعلامية أحادية unitary، وإلى أي مدى تكون متنوعة؟

(ب) إلى أي مدى تكون الممارسات الخطابية الإعلامية مستمرة، وإلى أي مدى تكون قابلة للتغيير؟

وهناك السؤال عن مرتبطة ببعضها بعضاً، ففي المجتمع المستقر و المحافظ تكون الممارسات الخطابية أحادية و مستقرة، وهناك أيضاً ضغوط مؤسساتية وموجهة تجاه الممارسة الأحادية فالأشكال القياسية موجهة أو المعطية تقلل تكاليف الإنتاج وتتفق مع توقعات جمهور القراء أو المستمعين أو المشاهدين، بينما تكون الممارسات الخطابية في المجتمع غير المستقر متنوعة وقابلة للتغيير

ويوضح فيركلاف مسألة القابلية للتنوع في الممارسات الخطابية من زاوية وجود عدد من البدائل المتاحة بالنسبة لنوع معين من الإنتاج الإعلامي مثل الفيلم الوثائقي التليفزيوني، حيث توجد تلك القابلية للتنوع بين المتكلم وصور عالم سياسية وايديولوجية، والاختلافات في الرأي المهني أو الفني، وعلامات لارتباط أدوات مجموعات خاصة من المشاهدين

وتظهر مسألة المتابعة متنوع أيضاً في استهلاك النص ما هي نظم الخطاب التي يستخدمها جمهور للإقبال على النصوص الإعلامية؟ وهل تتحدث الجماهير أو تكتب عن هذه النصوص في حياتها الخاصة أم في مجالات العامة، وما هي العوامل الاجتماعية ذات الصلة بهذا الاختيار؟

ويستند فيركلاف على أن ممارسات الخطابية الإعلامية المتغيرة وعلاقاتها بالتغيرات الاجتماعية والثقافية الأوسع معاً تمثل موضوع اهتمام خاص، ويمكن فهم التغيير باعتباره تغيراً في علاقات الاختيار أو العلاقات المتسلسلة (الخارجية أو الداخلية)

ثم ينتقل فيركلاف شرح مصطلح " نمط الخطاب " discourse type الذى يستخدمه للإشارة إلى تكوينات الأنواع الأدبية و الخطابات المستقرة نسبيًا داخل نظام الخطاب إذ إن الأنواع الأدبية تحدث في صيغ تولفيقية معينة مع الخطابات الأخرى فعلى سبيل المثال قد يجمع إذاعة الحرب السياسي بين الخطبة السياسية وبرنامج حديث interview ومحاكاة محادثة مرئية كذلك ظهرت " الدردشة " كنمط خطابي مهم يجرى في استوديوهات التليفزيون وتتضمن تآلفاً

تركيب بعناصر متحادثة مع عناصر الترفيه. ومن المهم هنا التعرف على أنماط الخطاب المتميزة التي ظهرت في نظام الخطاب الإعلامي، مثل الدردشة والمناقشة الجماهيرية.

ويقترح فيركلاو التركيز على فهم مدى استقرار أو عدم استمرار التوليفات configurations التي تكون الأنماط الخطابية، بحيث يمكن أن نتصور وسائل الإعلام كمجموعة مترابطة فيما بينها من أنظمة الخطاب. فأنظمة الخطاب الخاصة بالإذاعة والتليفزيون والصحافة تتميز كل منها عن الأخرى من نواحي مهمة نظرًا لاختلاف تكنولوجيا الاتصال وطبيعة ومتطلبات الوسيلة الإعلامية، ولكنها أيضًا تتشابه من نواحٍ مهمة.

ويؤكد فيركلاو على ضرورة فحص نظام الخطاب الإعلامي بوصفه مجالاً للقوة والهيمنة الثقافية، ففي الماضي تم وصف وسائل الإعلام في أحيان كثيرة كما لو كانت تقع تحت سيطرة ممارسات واحدة مستقرة مفروضة من أعلى. وبالطبع لا ينطبق هذا الوصف على وسائل الإعلام المعاصرة. غير أنه قد يحمل بعض الحقيقة بالنسبة لملامح معينة من الممارسة الإعلامية، وكان ذلك الوصف أكثر انطباقًا منذ ثلاثين عامًا مضت منه الآن، حيث كان هذا الوصف يعني ضمنًا وجود نسخة إعلامية عند طبيعة نظام الخطاب الإعلامي، وأن هذه النسخة أو النموذج مكون من عدد من المبادئ والقواعد المحددة جيدًا والواضحة والمستقرة. ولكن رغم أن هذه النسخة أصبحت غير مناسبة الآن، فهذا لا يعني عدم وجود مجالات للقوة والسيطرة. فمن الصعب التسليم بصورة أن وسائل الإعلام المعاصرة تعتمد على التنوع الثقافي، ومن ثم النظرة إلى وسائل الإعلام بوصفها متعددة الممارسات بشكل كبير، مع عدم وجود شبكة علاقات قوى تسيطر على النظام الإعلامي كله.

إن هذه النظرة تؤيد فكرة نظام الخطاب الإعلامي التي سبق تعريفها، أو على الأقل تؤدي إلى إنشاء نموذج مختلف لنظام الخطاب الإعلامي باعتباره "فسيفساء" mosaic من الممارسات. لكن يصعب التسليم تمامًا بعرضية أن وسائل الإعلام تعمل

في إطار من الاغتراب والتنوع الثقافي والاجتماعي. بل على العكس يرى فيركلاو أن هناك مزيداً من التنوع نتيجة تطور تكنولوجيا الاتصال. ولكن أيضاً توجد شبكات من القوة والهيمنة داخل وسائل الإعلام.

ويضيف فيركلاو أن هناك منهجاً آخر يمكن اتباعه عن طريق التساؤل عن كيف يمكن أن يؤدي التنوع والتعدد الإعلامي دوره داخل نظام من السيطرة. ومن المفيد الرجوع هنا إلى مفهوم غرامشي عن الهيمنة hegemony بعبارة نظرية للقوة والسيطرة. تقوم سلطة الهيمنة من خلال تحقيق موافقة الشعبية عليها بدلاً من الإكراه، كما تؤكد هذه النظرية على النواحي الثقافية للسيطرة والتي تتوقف على ترابط معين فيما بين الممارسات المتعددة.

وبذلك فإن السؤال الذي يطرح نفسه حول نموذج الهيمنة هو: هل ترتبط الممارسات الخطابية المتنوعة فيما بينها داخل نظام الخطاب بطرق تؤدي في مجموعها إلى استدامة علاقات السيطرة؟ وكيف يتحقق ذلك؟

خلاصة القول أن فيركلاو يوافق على وجود تصنيفات خاصة بوجود آليات وشبكات للقوة والهيمنة على النظام الإعلامي، إلا أن أشكال وآليات تلك السيطرة تختلف عما كان يحدث في الماضي، وهنا يستعير فيركلاو مفهوم غرامشي عن الهيمنة الناعمة بدلاً من الهيمنة والسيطرة عبر الإكراه. أي الهيمنة عبر التعدد والاختلاف الشكلي. ومثل هذه الحالة تتفق ومفهوم فيركلاو للخطاب الإعلامي ودوره في المجتمع. فالخطاب الإعلامي يحمل أفكاراً وأيديولوجيات متعددة ويتأثر ويؤثر في المجتمع لكنه في النهاية يخضع للقوى الاجتماعية المسيطرة والمهيمنة اقتصادياً وسياسياً.

ورغم أهمية نموذج فيركلاو إلا أنه يعتبر نوعاً من التفكير النظري المجرد، حيث لم يختبر على نحوٍ جاد، ولم يستخدمه سوى عدد محدود من البحوث والدراسات، وهذا الوضع يختلف عن منهجية ميشيل فوكو في تحليل الخطاب، والتي ربما

اكتسب طابعًا عمليًا تطبيقيًا عميقًا وشاملاً ساعد على تطوير وتحديد مكوناتها النظرية. كذلك فإن نموذج فيركلاو يبدو من الصعب تطبيقه، حيث يتطلب جهدًا كبيرًا، ويلزم الباحث بإجراءات معقدة بعضها غير محدد، أو يصعب الاتفاق حوله مثل التحليل الاجتماعي للتناص الانتقائي، والعلاقات بين أنظمة الخطاب الخاصة والعامة، وكيفية تحديد العلاقات الداخلية والعلاقات الخارجية في أنظمة الخطاب، والعلاقات الاختيارية والعلاقات المتسلسلة.

* * *

الفصل الثالث

ممارسات ونماذج تطبيقية

يهدف هذا الفصل إلى تقديم نماذج وأمثلة لممارسة تحليل الخطاب، بحيث يتوفر لقارئ الكتاب نماذج تطبيقية تستفيد من الأطر النظرية والأدوات التحليلية التي ناقشها الكتاب بشكل نظري في الفصلين الأول والثاني.

يقدم المبحث الأول نموذجًا لتحليل الخطاب القومي العربي في مجلة الهلال خلال الفترة من ١٩٢٤ - ١٩٣٩، اعتمد على استخدام أداة مسار البرهنة، ويشمل هذا المبحث على عرض نظري شامل لمفهوم الخطاب ومسار البرهنة والإجراءات المنهجية التي تم اتباعها في عملية التحليل، ثم يعرض لكيفية تطبيق مسار البرهنة في تحليل عدد من مواد الرأي التي نشرت في الهلال خلال الفترة من ١٩٢٤ - ١٩٣٩، والتي تناقش قضايا هوية مصر وعلاقة مصر بمحيطها العربي، فضلاً عن ملامح الفكر القومي العربي آنذاك.

ويمثل هذا المبحث جزءًا من رسالتي لنيل درجة الماجستير في الصحافة والتي تناولت بالتحليل الخطاب القومي العربي في الصحافة المصرية خلال الفترة من ١٩٢٤ - ١٩٥٢، إلا أنني فضلت - لاعتبارات المساحة - نقل الأجزاء الخاصة بمسار البرهنة والإجراءات المنهجية الخاصة بتحليل الخطاب، والاكتفاء أيضًا بتحليل الخطاب القومي العربي في مجلة الهلال، والتي كانت من أكثر المجلات المصرية اهتمامًا بقضايا عروبة مصر والفكر القومي العربي[*] (شومان، ١٩٩٠).

وقد ألزمت نفسي بنقل هذه الأجزاء من رسالتي للماجستير كما وردت في النص

(*) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى النص الكامل للرسالة بكلية الإعلام - جامعة القاهرة.

الأصل ويبدو تعديله تغيير تقريبًا وذلك على ما به من نواقص وعيوب نظرية ومنهجية. إذ أعتقد أن هذه العيوب ترتبط دائمًا بالمحاولات الأولى في أي مجال علمي. لكن بشرها - بل ويشفع - ما يفيد في إدراك بعض القضايا النظرية والمنهجية التي وردت في هذا الكتاب، والتعرف عن قرب على إحدى محاولات ممارسة تحليل الخطاب الصحفي.

وأود أن أشير إلى أنني قدمت هنا، شاملا للإطار النظري والمنهجي والمادة التطبيقية التي قمت بها، حيث حاولت بدون وعي معرفي أو منهجي بين ميشيل فوكو وتأويلية بول ريكور ومساهمات دوميينك مانجينو رغم ما بينهم من خلافات نظرية ومعرفية. وقد أدى هذا الخلط إلى عيوب في عملية التحليل تجسدت في الجمع بين القراءة التأويلية أحيانًا، والتحليل في أحيان أخرى، كذلك فإن ضغط التقاليد العلمية السائدة آنذاك، وعدم الاعتراف بشرعية تحليل الخطاب، دفعتني نحو الجمع التعسفي بين المؤشرات الكمية والكيفية في تحليل الخطاب القومي العربي، كما أن محدودية معرفتي بمدارس تحليل الخطاب دفعني أيضًا إلى اختيار عينة هائلة من مواد الرأي التي نشرت في الصحافة المصرية خلال سبع سنوات تقريبًا وخلال فترة زمنية طويلة من ١٩٢٤ إلى ١٩٥٢، الأمر الذي أدى إلى ضعف مستوى التحليل وتوعيته (شومان، ٢٠٠٤)

أما المبحث الثاني فهو عبارة عن ترجمة - مع بعض الشرح - لمقال أورده فيركلاف لتوضيح إطار التحليل النقدي للخطاب والمفاهيم التي استخدمها، ومستويات التحليل التي يتطلبها إجراء مثل هذه النوعية من التحليل

المبحث الأول

تحليل الخطاب القومي العربي في الصحافة المصرية ١٩٢٤ - ١٩٣٩

أولاً: مسار البحث

١- مفهوم الخطاب

إن مادة الرأي في الصحافة المصرية التي عكست أبعاد الفكرة العربية " هوية مصر - القومية العربية - الحركة القومية " قدمت بشكل صريح أو مضمر مجموعة من الأفكار ووجهات النظر تمثل في مجموعها خطابًا قوميًا عربيًا أنتجه صحفيون ومفكرون وسياسيون من مصر ومن الأقطار العربية الأخرى، ويسعى هذا الخطاب إلى التأثير على جمهور القراء، وذلك وفقًا لما قد تحتويه من تناقضات وعلاقات رئيسية وثانوية.

ويرتبط انتشار استخدام مصطلح الخطاب بالاتجاه البنيوي الذي ساد الثقافة العربية في الستينات وعم على نفسه في الكثير من دراسات اللغة وعلم النفس والأنثروبولوجيا والتاريخ، ولا تُعرف البنيوية بأنها فلسفة قائمة بذاتها، ولكن مجرد منهج بحث أو اتجاه في التفكير. من هنا ظهرت العديد من المدارس والتيارات التي تنتسب إلى البنيوية (جعفر دك الباب، ص ١٣) فقد أسس " ليفي شتراوس " البنيوية الأنثروبولوجية " وميشيل فوكو " البنيوية الثقافية " وجاك لاكان " البنيوية السيكولوجية، وألتوسير " البنيوية الماركسية " (انظر على سبيل المثال: ميشيل فوكو، ١٩٨٧، وكورزويل، ١٩٨٣).

ويعتمد البنيوية اللغوية على دراسات عالم اللغة السويسري " فرديناند دي سوسير " (١٨٥٧ - ١٩١٣) الذي وضع منهج " تحليل البنيوية على الدراية والنظر إلى اللغة على أنها صورة مادة ولا أخذ بمبدأ النسق الذي يعني الصدق لنظام الكل على أجزائه أو عناصره " (زكريا إبراهيم، د. ت، ص ٧٧، ص ص ٢٣ - ٢٤) وتأثر البنيويون بمنهج سوسير في اللغة (جعفر دك الباب، ص ٢٣ - ص ٢٥) كي

تهتم بتحليل أي نص هو وثيقة كتبية واجتهدوا في البحث عن المقصود عبر النص، وتحليل العلاقة بين النص ومنتجه والعلاقة بين النص والقارئ، وكذلك العلاقة بين الفهم والشرح وتبرز هذه الاهتمام في أعمال بول ريكور (Paul Ricoeur. 1983)

ورغم هذه الموضوعات المشتركة إلا أن ممثل البنيوية لا يتفقون فيما بينهم حول مفاهيم أو وجهات نظر محددة مصدد كثير من القضايا، وإنما توجد بينهم نقاط اتفاق ونقاط اختلاف تنعكس على محاولاتهم لتعريف واستخدام مجموعة من المصطلحات وأدوات التحليل مثل المنطوق والخطاب والإشكالية والقطيعة المعرفية والمقاومة الخطابية وإنتاج المنطوق.

ويهم الباحث هنا التعرض لاجتهادات البنيويين بشأن تعريف واستخدام الخطاب، مع الإشارة إلى مصطلح المنطوق لارتباطه الكبير بمصطلح الخطاب، ويقدم D.Maingueneau منه تعريفات أو استخدامات مختلفة لمصطلح الخطاب هي (1976, pp. 11-12 D. Maingueneau)

١ـ أن الخطاب discourse مرادف لمفهوم الكلام parole عند سوسير بالمعنى المتعارف عليه في علم اللغويات البنيوية، أي دراسة الكلام وليس اللغة بما يستتبع ذلك من وضع المتكلم في الاعتبار دون الاهتمام باللغة كبنية وكنظام عام

٢ـ الاستخدام الثاني للخطاب لا يتم فيه الربط بين الخطاب وبين الفاعل، ولكن الخطاب يستعمل كوحدة لغوية ذات بعد يتجاوز الجملة، أي التعامل مع الخطاب كنص مجرد، كرسالة كلية، كمنطوق enounce.

٣ـ أن يدمج الخطاب في التحليل اللغوي، بحيث يوضع في الاعتبار مجموع قواعد تسلسل الجمل المكونة للمنطوق، ويعد Harris. Z الأمريكي أول من اقترح ذلك

٤ـ وفقًا لما يمكن أن يطلق عليه «المدرسة الفرنسية» يطرح مفهوم الملفوظ(*) بالتعارض مع مفهوم الخطاب في تعريف واقعي لقضيته، فالخطاب هو الملفوظ من وجهة نظر نظام الخطاب .ميكانيزم الخطابي الذي تحكم إنتاجه ظروف وشروط معينة، ومن ثم فإن النظر إلى النص من منظور بنائه كلغة يجعل منه ملفوظًا، ومن ناحية أخرى فإن دراسة ظروف أو شروط إنتاج هذا النص ذاته تجعل منه خطابًا

٥ـ ثمة استخدام خاص لمفهوم الخطاب، وذلك بنموذج نظريات إنتاج الملفوظ enunciation(**) في إطار مفهوم الخطاب، ووفقًا لهذا المعنى يقول Benveniste إن إنتاج الملفوظ يعبر عن التحول الفردي للغة لتكون خطابًا، وهو يقدم التعريف التالي: يجب استخدام الخطاب في أوسع معانيه، أي من حيث هو كل إنتاج لملفوظ يفترض متكلمًا Acuter ومستمعًا auditor بحيث يتوافر عند الأول قصد التأثير على الآخر بطريقة ما

٦ـ يعكس الاستخدام الأعم لمفهوم الخطاب بعض الفروق مع الاستخدامات الأخرى، حيث يطرح مفهوم الخطاب بالتعارض مع مفهوم اللغة، ويمكن توضيح ذلك على النحو التالي

الملفوظ + موقف الاتصال = خطاب

تراث لغوي = خصوصية

معنى = دلالة

(*) يعرف D.Maingueneau الملفوظ بأنه تتابع الجمل الصادرة بين فراغين دلاليين أي وحدة دلالية، أو مجموعة جمل تشكل وحدة على مستوى الدلالة. Ibid.p. 1

(**) يعرف D.Maingueneau إنتاج الملفوظ بأنه استخدام وتشغيل اللغة عن طريق فعل فردي، أي أنه لا يرادف مفهوم الكلام عند سوسير، ولكنه يتعلق بفعل إنتاج الملفوظ وليس نص الملفوظ، وإنتاج الملفوظ هو الفعل الذي يقوم المتكلم بموجبه بتهيئة وتسخير اللغة لحسابه الخاص، ويتفاعل مع اللغة كلحظة وتحول اللغة إلى خطاب ويصبح متكلمًا. Ibid.p.102

ويؤكد Paul Ricoeur أن الخطاب هو عكس ما يطلق عليه اللغويون نظام أو كود بمعنى أن الخطاب هو حدث الكلام، وإذا كان الرمز (الصوتي أو المعجمي) هو الوحدة الأساسية للكلام، فإن الجملة هي الوحدة الأساسية للخطاب، وهنا فإن التركيب اللغوي للجملة هو الذي يساند نظرية الخطاب كحدث.

وهناك أربعة مستويات للخطاب تميزه عن اللغة هي:

١- أنه يتحقق دائمًا بشكل مادي وفي الحاضر، بينما نظام اللغة هو نظام عرضي وخارج عن الزمن.

٢- أنه يشير إلى فاعله نظرًا لوجود مجموعة معقدة من الآليات، مثل الضمائر، بينما اللغة لا تتطلب بالضرورة وجود أي فاعل.

٣- يشير الخطاب إلى عالم هو الذي يقوم بصياغته والتعبير عنه وتقديمه، بينما رموز اللغة تشير فقط إلى رموز أخرى داخل نفس النظام، ومن خلال الخطاب تتجسد رمزيًا في عناصر الوظيفة الرمزية للغة، كما أن اللغة ليس لها عالم خاص، وتتجرد عن التجسيد وعن الزمانية.

٤- بينما اللغة هي فقط شرط من شروط الاتصال لأنها توفر الرموز، فإن تبادل الرسائل يتم من خلال الخطاب فقط، بما يعني أن الخطاب ليس له عالم فقط ولكن له أيضًا عالم آخر هو المتوجه إليه بالحديث (Paul Ricoeur 1983, pp. 184 185)

ورغم تعدد وتداخل واختلاف مفاهيم الخطاب، فمن اللافت أن مصطلح يعتبر تاريخيًا مقولة من مقولات علم المنطق تعني التعبير عن فكر متدرج بواسطة قضايا مترابطة، ثم اجتهد بعد ذلك إطلاقه على العمل البحثي بدءًا من القرن السابع عشر، وكان ملتقى بن رسين بالجزائر في مايو ١٩٨٠ قد تبنى مصطلح الخطاب بوصفه أعمق من الحديث وأدق من القول وأشمل من المقال، وأيسر من الأقاويل المستخدمة عند قدامى الفلاسفة العرب (دياب، ١٩٨٧، ص ٧)

٢- قراءة الخطاب القومي العربي في الصحافة المصرية

في ضوء العرض السابق لمفهوم الخطاب واستخداماته المختلفة يبني الباحث مفهوماً للخطاب يعتمد على اجتهاد كل من Benevenist & Ricoeur ، حيث ينجلي الخطاب كرسالة من مرسل إلى متلق بعرض التأثير في الآخر أي أنه خطاب عرضي يتم إنتاجه، وكذلك فهمه في ظروف مادية ومعنوية محددة، مما يؤشر إلى أهمية دراسة الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المحيطة بالخطاب بوصفه حدثاً تاريخياً.

ويميز Benevenist بين مستويين لإنتاج المنطوق التاريخي والخطابي، فالأول سرد للأحداث الماضي دون تدخل من المتكلم وكأن أحداً لا يتكلم أو أن الأحداث تقص نفسها. أما المنطوق التاريخي فهو يشمل كل ذلك إذ يوجد شخص يوجه الكلام إلى آخر أو يعبر عن نفسه كمتكلم، وينظم ما يقوله داخل إطار أو مقولة (D.Maingueneau, 1976, p.104)

كذلك يميز Ricoeur بين هدف الكاتب وهدف النص إذ إنهما غير متطابقين في الخطاب، وهذا الانفصال بين المعنى اللغوي للنص وبين هدف العقل هو مصدر الشرك الحقيقي لتسجيل الخطاب. لكن هذا لا يعني أنه يمكن إدراك نص دون كاتب فالصلة بين المتحدث والخطاب لا تنهدم ولكنها تصبح معقدة وممتدة، ولكن مجال النص ينفصل عن أفق الكاتب، وما يقوله النص هو أهم بكثير مما أراد الكاتب أن يقوله، وكل تفسير يجد أساليبه وطرقه من داخل محيط المعنى الذي انفصل عن نفسية الكاتب. (Paul Ricoeur,1983, p.167)

ويعرض محمد عابد الجابري للعلاقة بين الخطاب وكل من الكاتب والقارئ انطلاقاً من الحديث عن الفكر العربي أو أي فكر معين هو مجموعة من النصوص، والنص رسالة من الكاتب إلى القارئ، وهو خطاب. فالاتصال بين الكاتب والقارئ إنما يتم عبر النص تماماً مثل أن الاتصال بين المتكلم والسامع إنما يتم عبر

الكلام فالكاتب يريد أن يقدم فكرة أو وجهة نظر معينة في موضوع معين وهما خطاب والقارئ يتلقى هذه الفكرة أو وجهة النظر كي يستخلصها هو من النص وبالطريقة التي يختارها، وهذا تأويل للخطاب هو من (Paul Ricoeur, 1983, p.187)

هناك إذن جانبان يكوّنان الخطاب، ما يقوله الكاتب وما يقرؤه القارئ، ويتابع الجابري تصويره لعلاقة بين النص والقارئ معركة بين الخطاب هو محاول الكاتب ومحاولة القارئ، فهو يخضع لقدرة الكاتب على بنائه، وكذلك قدرة القارئ على إعادة بناء النص أي قراءته بإبراز أشياء والسكوت عن أشياء أو تقديم أو تأخير أشياء أخرى. فيساهم القارئ في إنتاج وجهة النظر بل يتعدى وجهات النظر التي يحملها الخطاب صراحة أو ضمناً، وفي هذا الإطار هناك القراءة الاستنساخية التي تقبل ما يريد الوقوف عند حدود التلقي المباشر، والقراءة التأويلية التي ترفض التلقي المباشر وتساهم بوعي في إنتاج وجهة النظر التي يحملها الخطاب، بل تهدف إلى إعادة بناء الخطاب لتجعله أكثر تماسكاً، ثم هناك القراءة التشخيصية التي تهدف إلى تحري عيوب الخطاب وكشف تناقضاته وإبراز ما أهمله أو سكت عنه أو تستر عليه. (الجابري، ١٩٨٢، ص ٨ ـ ١٠)

ويقوم البحث في إطار دراسة وتحليل الخطاب القومي العربي بذلك النوع الأخير من القراءة أي القراءة التشخيصية وهذه القراءة كي يعرب (التوسير) تقوم ضد القراءة الساذجة التي تجد في النص تجلياً مباشراً لو كان الواقع نفسه خطاب ناطق يتكلم بلسان حاله إلى القراءة التشخيصية Lecture symptomale تقوم على اكتشاف الكلام من وراء الصمت وإدراك المعنى من خلال السياق، وتمييز العناصر بالرجوع إلى صميم البنية نفسها (الجابري، ١٩٨٢، ص ١) ولكن هذه القراءة من إدراك مكونات الخطاب ومقولاته الأساسية والشروط التاريخية الاجتماعية التي أثرت في إنتاجه أو مرجعيته فضلاً عن لمس ما يقصر في ثنايا الخطاب، وكذلك علاقته بالخطابات الأيديولوجية السائدة في المجتمع

من جهة أخرى اعتمد الباحث على مقولات علم اجتماع المعرفة في قراءة الخطاب القومي العربي، وخاصة فيما يتعلق بظروف إنتاجه وتوجيهه. ويرتبط علم اجتماع المعرفة بمحاولات "كارل مانهايم" في تعريف الأيديولوجيا وتحليل دورها في المجتمع حيث انتهى إلى أن أي حقيقة تصدر عن الواقع الاجتماعي، ومن ثم تصبح المواقف التاريخية والأوضاع الاجتماعية هي المصادر الأولية التي تشكل النسق العقلي والفكري للإنسان (الجابري، ١٩٨٢، ص ١). إن المعرفة هي بالضرورة تاريخية لا يمكن تصورها كشيء مطلق خارج موقف اجتماعي معين، أي أنها ترتبط دائماً بالأوضاع الاجتماعية والمصالح الاقتصادية والسياسية لطبقات أو الفئات المختلفة (K.Manheim,1948).

والمنهج العام في علم اجتماع المعرفة هو ما يطلق عليه الإسناد Imputation، ويعني أن تنسب فكرة معينة أو نسق من الأفكار إلى فئة معينة، أو إسنادها إلى مراحل زمنية وظروف اجتماعية تاريخية. أما الإسناد السوسيولوجي فهو أهم أنواع الإسناد لأنه يحدد بدقة أكبر علاقة فئة معينة في الحياة في إطار المراحل التاريخي بالطبقات الاجتماعية والجماعات التي تبنتها أو اعتنقتها واعتمدت عليها في تحديد وضعها في المجتمع (K. Manheim, 1952, pp.130-140).

٢-٣ إجراءات مسار البرهنة

تعرف البرهنة بأنها نص معقد عقلي، تتوافق غايته مع إقناع المستمع (أو القارئ) إلى أطروحة يعرضها المتكلم (أو الكاتب)، وتتيح تسلسلاً مبنيًا من البراهين المختلفة، والتي تربطها استراتيجية شاملة. وعادة ما توجد البراهين في صورة تراتبية، أي أن برهانًا معينًا يساهم في إرساء برهان آخر على مستوى أعلى.

وفضلاً عن ذلك فإن العلاقات بين الجمل المختلفة تخضع لعدد متنوع من الميكانيزمات، سواء تعلق الأمر بالنظم الشكلية (أي الأسباب وقواعد الاستنتاج) أو بالروابط الأقل صرامة كما هو الحال في عملية عمليات البرهنة. ويجب عدم

الوقوع في فخ رد المعة إلى حرفها اللغوي - مطفي بسيط - إذ إن الحجة ذات وظيفة برهانية ووظيفة منطقية وينبغي مراعاة الوظيفتين معًا لأن المتكلم في سبيل بناء عملية البرهنة ينطلق من أساس وأرضية اتفاق يفترض أنها مشتركة مع المستمعين، مثل الوقائع والحقائق والافتراضات الحدسية والقيم وتراتب القيم والأماكن أو المواضع (Maingueneau, 1976, pp. 163-168).

إن مسار البرهنة يحافظ على بنية النص ويسمح بتحليل الأيديولوجية ضمن التسلسل الخطابي، وتسلسل البرهنة وموضوعية المنطق والحجج التي يعطيها المتكلم لإثبات هذا المنصر أو ذاك (مارلين نصر، ١٩٨٣، ص ٥٦)، وقد وقع الاختيار على مسار البرهنة مع محاولة تطويره من خلال الممارسة وكتابة مؤشرات كمية في التحليل، ولا سيما أن المناهج والمقاربات أو الأدوات المنهجية التي تنتمي إلى العلوم "اللسانية" أكثر قابلية للتطوير والاستجابة لمتطلبات وأهداف البحث، شرط تحديد المفاهيم وإجراءات العمل والالتزام بها.

وفيما يلي عرض لأهم المفاهيم والإجراءات التي نظمت عملية قراءة وتحليل الخطاب القومي العربي في الصحافة المصرية اعتمادًا على مسار البرهنة

(أ) الأطروحة (*)

يعتمد أي نص على مجموعة من الأطروحات والمفاهيم التي تترابط وتسعى إلى تحقيق هدف أو أهداف معلنة أو مضمرة، وعادة ما تدور الأطروحة أو تجسد فكرة ما ترتبط بسياق وأهداف النص أو تخرج عنه، أي إنه يشترط عبارة الأطروحة أن يكون لها دور في بناء المنطق الداخلي للنص، وأن تكون متناسقة باتجاه تحقيق أهدافه

(*) طرح، يطرح، طرحًا: ألقاه ورماه، طرح القضية للبحث والمناقشة، والأطروحة جمعها أطروحات، وهي رسالة علمية يكتبها الطالب للحصول على درجة الماجستير أو الدكتوراه. (المعجم العربي الأساسي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٩، ص ٧٨٩).

بغض النظر عن أن ترد في جملة أو فقرة، أو يصاحبها برهان أو براهين، بل قد تبقى أطروحة بذاتها بدون براهين (*)

(ب) البرهان (**)

يركز دور ومكان البرهان أو البراهين في التعبير عن أو منطقة الأطروحة إذا جاز التعبير، وإثبات صلاحيتها، ولا يشترط دائماً أن تصاحب كل أطروحة براهين أو برهان ما

(ج) طريقة التحليل

قراءة النص الذي يدخل في عينة التحليل، ثم استخراج **الأطروحات الواردة** فيه. ويسجل كل أطروحة على حدة مع البرهان أو البراهين التي تصاحب كل أطروحة

يراعى في عملية استخراج الأطروحات والبراهين مراعاة أقل قدر من التدخل، سواء بالاختصار أو الحذف، أي أن الأطروحة تستخرج تقريباً من النص بصياغته منتجه الأصلي ورغم صعوبة هذه العملية إلا أنها تضمن إلى حد كبير - موضوعية هذه المرحلة حيث لا تسمح بتدخل ذاتية الباحث إلا في أضيق الحدود

- تظهر بعض الأطروحات أكثر من مرة في سياق النص، كذلك الحال بالنسبة لأحد البراهين، وفي هذه الحالة تحصر كل أطروحة أو برهان مع عدد التكرارات

(*) اعتمدت هارلين مصر في دراستها عن التصور القومي العربي في فكر جمال عبد الناصر على أنه تكل أطروحة مجموعة من الحجج والبراهين التي تشكل عليها ركيزتها أو تدعمها. إلا أنها لم تستخدم الأطروحات والحجج بما تقلل من نتائج دراستها حيث إن الحجة تفصل وتوضح الأطروحة تقعد كذلك فقد كانت تستخلص طبيعة كل حجة ولا تهتم بمضمونها أو سياق الأطروحات

(**) برهن، يبرهن: برهنة الشيء رغبه أقام الدليل، وبرهان جمعها براهين، وهو الحجة البينة الفاصلة، وفي الفلسفة القياس المؤلف من مقدمات يقينية وفي الرياضيات ما يثبت قضية من مقدمات مسلم بها (المعجم العربي الأساسي، مرجع سابق، ص ١٦٥)

التي حصلت عليها، وعدد التكرارات التي حصلت عليها كل أطروحة تتجلى أهميته في سياق النص.

- ترتبط عملية استخراج الأطروحات والبراهين في النص، وحصر تكرارات كل منها بمنتج كل أطروحة ومناسبة وتوقيت إنتاج النص، وموقعه ومساحته في الصحيفة أو المجلة التي تخضع للتحليل.

تخصص كل أطروحة وكل برهان على رقم مسلسل يساعد في نهاية مرحلة التحليل على حصر إجمالي البراهين والأطروحات في كل صحيفة أو مجلة، وبالتالي مقارنتها مع بقية الصحف والمجلات في كل فترة من فترات التحليل على حدة.

بعد الانتهاء من استخراج أطروحات وبراهين مسار برهنة الخطاب القومي العربي في الصحافة المصرية قام الباحث في ضوء خبرة العمل، وبالاستعانة بثلاثة محكمين[*] بتحديد مرجعيات إجرائية للقضايا التي ترتبط بالفكرة العربية في مصر، وحدد مرجعات مختلفة لاهتمام الخطاب القومي العربي في الصحافة المصرية وموقفه منه سواء بالرفض أو التأييد.

قام الباحث بتوزيع الأطروحات والبراهين في كل صحيفة أو مجلة كلٌّ على حدة - على مقياس استمارة التحليل، والتزم بنتائج هذه التوزيع في عملية تحليل الخطاب القومي العربي في الصحافة المصرية. ويساعد هذا التوزيع على تفسير مدى اهتمام كل صحيفة بقضايا الفكرة العربية كميًا وكيفيًا الأمر الذي يكسب أدلة مسار البرهنة مصداقية أعلى في التحليل.

(د) قياس صدق وثبات مسار البرهنة

اعتمد الباحث على مقياس برتمت التشابه تم استخدامه في بحث بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية (لمزيد من التفاصيل انظر مصطفى سويف وآخرون، ١٩٧٧، ص ١٢)

(*) على عجاج، وسلوى شحاتة، وعبد العزيز الوكيل

وقام الباحث بتدريب ثلاثة من زملائه الباحثين على خطوات استخراج الأطروحات والبراهين من النص. ثم عهد إلى كل منهم على حدة باستخراج الأطروحات والبراهين من ٢٠ نصًا من النصوص التي خصصت للتحليل(*)، كما قام الباحث منفردًا بإجراء تحليل مماثل على النصوص ذاتها. وقد جاءت نتائج القياس والمقارنة مرضية اعتمادًا على مقياس تدريجي مكون من(**)

- تشابه تام أو تطابق ٥
- تشابه إلى حد كبير ٤
- تقارب ٣
- تقارب طفيف ٢
- لا تشابه ١

ثم قام الباحث بعد شهر من تاريخ إجراء قياس الثبات بتكرار التحليل على نفس المواد وبين الباحثين الثلاثة، وجاءت النتيجة مرضية.

وقام الباحث بتكرار نفس القياس بين الباحثين الثلاثة لتقدير مدى الصدق والثبات فيما يتعلق بتوزيع وتصنيف أطروحات وبراهين الخطاب القومي العربي على امتداد مراحل التحليل.

وأعيدت التجربة بعد شهر وكانت النتائج تنحصر بين تشابه تام وتشابه إلى حد كبير.

(*) بعد أن استخرج الباحثون الثلاثة الأطروحات والبراهين جرت عملية مقارنة حيث قام كل منهم على حدة بتقدير درجة التشابه. وقد انحصرت النتيجة في وجود تشابه إلى حد كبير وتقارب.

(**) جرى اختيار هذه القوالب بطريقة عشوائية داخل كل مرحلة من مراحل التحليل ويوجد ٥ نصوص عن كل مرحلة من مراحل التحليل.

ثانيًا: نموذج لتحليل الخطاب القيمي العربي في مجلة الهلال ١٩٢٤ - ١٩٣٣

مجلة الهلال مجلة شهرية أصدرها جورجي زيدان عام ١٨٩٢ وتخصصت في نشر موضوعات أدبية وثقافية عامة من إنتاج كبار الأدباء والمثقفين في مصر وبعض الأقطار العربية. وكان محررو المجلة يساهمون في تحرير بعض الاستطلاعات والتعقيبات والأحاديث وقليل من الأخبار. وابتعدت الهلال عن تناول الموضوعات السياسية، فلم تكن طرفًا مباشرًا في الصراع الحزبي. كما أنها لم تتخذ مواقف معلنة ضد الاحتلال، الأمر الذي ضمن لها عدم التعرض لمصادرة أو التعطيل.

أ- وصف مادة التحليل والقائم بالاتصال

قام الباحث بمسح الأعداد التي صدرت من مجلة الهلال منذ مارس ١٩٢٤ إلى ديسمبر ١٩٣٣ وبلغت ٨٨ عددًا، حيث كانت سنة الهلال عشرة أشهر فقط[*] وتعوض المجلة القراء عن الشهرين الباقيين بكتب تصدرها وتهديها إلى المشتركين. كانت الهلال تصدر في ١٢٠ صفحة من القطع الصغير، واتسمت موضوعاتها بالتنوع من حيث طبيعة موضوعات وأفكارها ومستواها التحريري، وكانت تنشر موضوعات في الأدب العربي والعالمي وموضوعات مترجمة، ودراسات ومقالات تاريخية وعلمية، وتخصص أبوابًا ثابتة للطب والمرأة والرحلات وغرائب الطبيعة والجغرافيا، بالإضافة إلى نشر الإنتاج الأدبي من قصة وشعر ونقد أدبي.

وكان المقال هو القالب التحريري السائد في الهلال، كما اهتمت المجلة بالأحاديث واستطلاعات الرأي. أما الأخبار فكانت قليلة. من هنا يمكن القول بأن الهلال كانت مجلة رأي إلا أن موضوعاتها وآراء الكتاب والمكاتبين كانت تتعلق بشئون أدبية وثقافية عامة. وكانت الهلال تظهر بغلاف فاخر يحمل أحيانًا صورًا

(*) لم تكن مجلة الهلال تصدر خلال شهري سبتمبر وأكتوبر من كل عام.

شخصية أو موضوعية أو رسوماً زخرفية أو لوحات فنية لكبار الفنانين، واهتم الهلال بالصور المصاحبة للموضوعات، والتي كانت تلعب دور بالغ الأهمية في تعريف القراء ببعض الكتّاب أو توضيح أفكار بعض الموضوعات.

ورغم اهتمام الهلال بالثقافة العربية ودعوة المقالات المنشورة به إلى عروبة مصر، إلا أن الدعوة للقومية المصرية الضيقة ظلت تظهر على صفحات الهلال. ويؤكد أصحابها استنادًا إلى دراسات تاريخية وإثنية أصالة القومية المصرية وانفصال مصر عن الدائرة العربية (انظر على سبيل المثال سلامة موسى "إلى أيهما نحن أقرب الشرق أم العرب؟" الهلال في يونيو ١٩٢٧، "المصريون أمة عربية"، الهلال في ديسمبر ١٩٢٨).

وقد خصصت سبعة موضوعات رأي مختلفة للتحقيق، منها ثلاثة مقالات لسلامة موسى [*] وحديث للأمير عمر طوسون، واستطلاعات للرأي نشر على ثلاثة أجزاء، أجرى الاستطلاع الأول طاهر الطناحي الصحافي بالهلال، وشارك فيه طه حسين ومنصور فهمي وعلي إبراهيم وعلي عبد الرازق وهدى شعراوي وأحمد شوقي. أما الاستطلاع الثاني فقد أجراه كريم ثابت مع وزير عراقي ووزير إيران وأفغانستان في مصر ووزير خارجية مصر. ونشر هذان الاستطلاعان في عددي مايو ويونيو ١٩٣٦. ويلاحظ أن استطلاعات الهلال تقترب من الحديث إذ لا يوجه المحرر سؤالاً واحداً أو عدة أسئلة للمشتركين في الاستطلاع، وإنما يكون مجال الحديث مفتوحاً، ويدور حول فكرة أو عنوان الاستطلاع.

وتتعدد مهن ومجالات أصحاب مقالات مادة الخطاب القومي العربي في الهلال إلا أن سلامة موسى يظل صاحب النصيب الأوفر ضمن المهتمين بالاتصال (٣

(*) من بين هذه المقالات مقال بعنوان "المصريون أمة عربية" سرت الهلال مع تعليق منها بأنه رأي طريف مبني على ما كتبه بعض علماء التاريخ والآثار من أهل العروبة في أمة الهلال عمدت على نقل طريقة غير مباشرة (الهلال عدد ديسمبر ١٩٢٨)

مقالات في ٧ أعداد) وعددهم ٣ شخصية، كان من بينهم ٠ شخصيات مصرية، بالإضافة إلى وديع صراف وويري الفاستان وإيران في مصر، و محمد الإسعرد إلى أشبه المناصب السياسية أو الأدبية التي يشغلها منتجو مادة الخطاب القومي في الهلال، الأمر الذي يكسب خطاب الهلال أهمية خاصة ومصداقية أعلى، كذلك فإن سيطرة المصريين على إنتاج مادة التحليل، بالإضافة إلى تركيز أسئلة استطلاعات الهلال عن نهضة مصر وعلاقاتها بالشرق قد مكّن نقيبه انتباه مصر ونصيبه الموقف من الفكرة الشرقية بيتصدر عن التوالي اهتمامات خطاب القومي في الهلال.

٢- تحليل الخطاب القومي العربي في الهلال

عالجت (٧٣) أطروحة، (٢٢) برهانًا قضايا الفكر القومي العربي في الهلال خلال الفترة من ١٩٢٤ إلى نهاية ١٩٣٢ ويمكن عرض هذه القضايا في

(أ) عروبة مصر

حظيت هذه القضية بجل اهتمام خطاب الهلال، حيث اختصت بها (٢٥) أطروحة و(١١) برهانًا وحصلت كل منها على تكرار و حدة باستثناء أطروحة طه حسين التي يدّعي فيها عدم قدرته على فهم الخصومة بين أنصار الحضارة العربية والحضارة المصرية القديمة والحضارة العربية فهذه الخصومة " فعر يولد الحقد والضغينة " ويذهب طه حسين في أطروحة ثانية إلى أن هناك أشياء حيث من الحضارة المصرية القديمة كاللغة والدين، وأشياء أخرى بقيت ولابد أن نحيي بها كالفن والأساطير كذلك الحال بالنسبة للحضارة العربية فقد بقي منها اللغة والدين وهي مقومات أساسيات بحياة المصرية الحديثة " إذن فحفظ الحضارة العربية في حياتنا كحفظ الحضارة المصرية القديمة "

ويدعو طه حسين للأخذ من الحضارة الغربية مع الاحتفاظ بالشخصية المصرية التي لا خوف عليها من الفناء، حيث عجز الفرس واليونان والرومان والعرب والأوربيون أن يهضموها، ومن ثمّ وجب على المصريين الحفاظ على وحدتهم

وشخصيتهم. إن الشخصية المصرية لدى طه حسين تبدو كحقيقة سرمدية غير قابلة للفناء أو التحول، ومن هذه الزاوية فإن على مصر أن تنتقي من التراث العربي الإسلامي، ومن الحضارة الفرعونية، وكذلك من الحضارة الغربية الحديثة، وهذا الموقف الانتقائي ينفي ما يراه طه حسين من خصومة مصطنعة بين أنصار الحضارات الفرعونية والعربية والغربية، لكن من الواضح أن نقطة ارتكاز طه حسين ومحور خطابه هي فكرة الشخصية القومية المصرية (طه حسين، حضارتنا القادمة فرعونية أم عربية أم غربية؟ الهلال، عدد أبريل ١٩٣٠).

ويقدم سلامة موسى (٨) أطروحات ترسم ملامح تصور مخالف لأفكار طه حسين فهو لا يحاول التوفيق بين تراث مصر الفرعوني والعربي والإسلامي، وإنما ينفي علاقة مصر بالأمة العربية بل وبالشرق كمفهوم متداول في تلك المرحلة "فنحن يقصد المصريين ليسوا شرقيين ولكننا أوروبيون في الدم والمزاج والثقافة واللغة" براهين ما قام به الخديوي إسماعيل ومحمد علي لمصلحة العرب والعالم، ويضيف في أطروحة ثانية أن مصر من سلالة لا تخالف سلالة الأوروبيين لأن شعوب البحر المتوسط من جهاته الأربع تنتمي إلى أصل واحد، مراعين ما تقدمه بعض الدراسات، ويفسر سلامة موسى أسباب الاستعمار الأوربي لمصر بأنه نتاج تقدم الصناعة في أوربا وتأخرها في مصر، وأن تقدم مصر الصناعي يعني الاستقلال. (سلامة موسى، المصريون أمة غربية، الهلال عدد ديسمبر ١٩٢٨).

وفي مقال تالٍ يذهب سلامة موسى إلى أن اللغة المصرية هي أصل اللغة العربية، فقد رحل المصريون إلى شبه الجزيرة العربية وجزء الشرقي من إفريقيا مدعين أن أصنام العرب مصرية الأصل مستعينين بما أثبته أحمد بك كمال في دراساته، بالإضافة إلى كون أصنام العرب تحاكي آثارًا وآلهة مصرية فرعونية (سلامة موسى، ثقافة مصر بين العربية، الهلال، عدد فبراير ١٩٢٩).

وعلى الرغم مما يبدو من خلافات بين أفكار طه حسين وسلامة موسى إلا أنهما يتفقان

على مركزية الشخصية المصرية، مع عدم التعرض لأي فكرة تتجاوز القومية المصرية الضيقة نحو قيام رابطة أوسع سواء كانت عربية أو شرقية أو إسلامية.

في مقابل ذلك يدعو خطاب الهلال على لسان عمر طوسون ومنصور فهمي وعلي عبد الرازق وهدى شعراوي وأحمد شوقي ومحمد شرف إلى روابط أعم وأشمل من رابطة القومية المصرية الضيقة، كي يؤكدون بدرجات متفاوتة على مركزية العروبة والإسلام في تحديد هوية مصر وحضارتها القادمة، وأن الأمة المصرية تتصل بكل ما سبقه إليها الماضي.

ويتابع منصور فهمي في أطروحته ثانية أن غالبية المصريين تلفهم اللغة والدين من العروبة ويؤكد "أن المصريين ينتمون إلى محيطهم الذي يعمل في سحنهم ويحكم كل محيط جغرافي في السحن والصورة، لكنهم عرب باللغة والأفكار" ويسعى منصور فهمي لتأليف بين المصرية والعروبة والإسلام والفكرة الشرقية فيقرر أنه لا تناقض بين المصرية والعروبة إذ يمكن الانتماء لهما معًا، كما أن الرابطة العربية أو الشرقية أو الإسلامية أو العالمية لن تمحو أي مصري أيا كان دينه أو سلالته أو عصبيته. (منصور فهمي حضارتنا القادمة فرعونية أم عربية أم غربية؟ الهلال، عدد أبريل ١٩٣١)

أما علي عبد الرازق فيؤكد أن اللغة العربية خالدة كالدين الإسلامي برهان أنها لم تتأثر كثيرا وطبيعية فاللغة العربية والإسلامية والعادات الشرقية أشياء لن تمحى أو تزول، ويرى في أطروحته ثانية ضرورة أن تكون الحضارة العربية والإسلامية من حيث اللغة والدين والتقاليد والروح العامة من مقومات الحضارة المصرية القادمة (علي عبد الرازق، حضارتنا القادمة فرعونية أم عربية أم غربية؟ الهلال، عدد أبريل ١٩٣١)

وتتفق مع أفكار علي عبد الرازق أطروحات وردت في أحاديث علي إبراهيم وهدى شعراوي وأحمد شوقي ومحمد شرف على التوالي (علي إبراهيم

وهدى شعراوي وأحمد شوقي ومحمد شرف. حضارتنا القادمة فرعونية أم عربية أم غربية؟ (الهلال عدد أبريل ١٩٣١) وقد اتفق الأول على ضرورة الاقتباس من الحضارة الفرعونية بعض القدر الذي نقتبسه من حضارة الإغريق والأشوريين أما محمد شرف فقد انتقد صراحة الفن والحكم الفرعوني لأنه لا يلائم العصر الحديث.

خلاصة القول أن مجلة الهلال سمحت بظهور موقفين متناقضين بشأن هوية مصر، الأول يدعو للقومية المصرية الضيقة، رغم بعض الاختلاف في الأسس التي يستند إليها، والثاني يدعو إلى التزام مصر بالتراث العربي الإسلامي، والدعوة لرابطة أوسع وأشمل من القومية المصرية.

(ب) مكانة ودور مصر

ناقشت (٧) أطروحات و (٢) برهان مكانة ودور مصر حيث تظهر مصر كزعيمة للشرق ستقود العالم العربي، وتبدو هذه الزعامة أمرًا طبيعيًا ومنطقيًا في ضوء أن مصر ستبعث الشعوب الشرقية من النهضة، كما أنها كانت تقود الحضارة الإسلامية العربية منذ عهد المماليك كما يقول عبد الرازق، ويذهب محمد شرف في أطروحة ثانية "مصر مرشحة لنهضة وربما لقيادة العالم" كما أن دعوة عصبة الأمم المتحدة يعرف العرب بما يجهله عن مصر بينما تعبر أطروحات هدى شعراوي برصد نهضة المرأة المصرية وكونها ستصبح قدوة للمرأة العربية.

(ج) علاقات بين الأقطار العربية

يمثل اهتمام خطاب مجلة الهلال بهذه القضية إذ يقرر الوزير العراقي نوري السعيد في أطروحة واحدة أن اللغة والثقافة العربية تربطان بين الأقطار العربية (نوري السعيد: الشعوب العربية والشرقية، كيف تتحد وكيف تتعارف، الهلال، عدد مايو ١٩٣٠)، ويمكن تفسير قلة اهتمام خطاب الهلال بعلاقات مصر بالعرب في ضوء طبيعة وتوجهات الأسئلة التي تم طرحها على قسم من النخبة المصرية، وداره

حول هوية مصر الحضارية وعلاقاتها الخارجية، فقد استحوذت إجابات هذه الأسئلة على النصيب الأكبر من مادة التحليل، ومن ثمّ لم تترك حيزاً كبيراً - كي سيتضح فيما بعد - للصلات بين العرب أو مستقبل العلاقات العربية وكذلك الموقف من الاستعمار.

(ب) مستقبل العلاقات العربية

تؤيد أطروحتان الدعوة إلى التعاون العربي بصورة عامة. وقد وردت الأولى في ثنايا الوزير العراقي نوري السعيد، وتؤكد على وجوب تعاون وتعارف الأقطار العربية بما يحقق المصالح المشتركة والدعم البشرية. أما الأطروحة الثانية فيقدمها عبد الفتاح يحيى وزير خارجية مصر آنذاك. ومشيراً إلى أهمية التعاون وتوثيق الروابط بين شعوب العالم مع اهتمام خاص بالدول الشرقية، الأمر الذي يعيد علينا دعوة الوزير المصري وخصوصية دعوة الوزير العراقي للأقطار العربية بالتعاون فيما بينها.

بينما تعالج (٣) أطروحات قضية التعاون الثقافي بين الشعوب العربية ببرهان في حد ذاته كبير على أهمية تعاون العرب في دعم وتطوير اللغة العربية، في هذا المجال يشهد الطبيب المصري الشهير (علي إبراهيم) على صلاحية اللغة العربية لأن تكون لغة علمية ببرهان استخدامها بنجاح في المجلة الطبية (علي إبراهيم، حضارتنا القادمة: فرعونية أم عربية أم غربية. الهلال، عدد أبريل ١٩٣١)، ويضيف محمد شرف أن اللغة العربية قادرة على التعبير عن فنون وعلوم العصر، ومن ثمّ يدعو في أطروحة ثالثة إلى تعاون العرب للحفاظ عليها وتطويرها.

هـ- تطور الفكرة العربية

١- ملامح الفكرة العربية

تهتم أطروحتان فقط بدون ترجيح بمناقشة هذا الجانب، وقد وردت الأولى في حديث منصور فهمي، حيث يصور الرابطة العربية كرابطة تهدف إلى تهذيب اللغة

والثقافة، وذلك في سياق محاولته للتوفيق بين العروبة والإسلام والمصرية والشرقية، انطلاقاً من أنها جميعاً دوائر تهدف إلى الخير والإصلاح.

أما الأطروحة الثانية فترد على لسان نوري السعيد الذي يسير إدراكه للفكر القومي العربي بقدر أكبر من النضج والشمول مقارنة بالكتاب والسياسيين المصريين، بعنوان "الوحدة العربية حقيقة واقعة"، كي يدعو للتعاون بين الأقطار العربية.

٢- الموقف من الفكرة الشرقية

تحتل هذه القضية المرتبة الثانية ضمن اهتمامات خطاب الهلال بعد قضية انتماء مصر، ويرجع ذلك إلى أن الأسئلة التي توجهها محررو الهلال عن قسم من النخبة المثقفة المصرية، ومن وزراء من مصر والعراق وإيران وأفغانستان حارب حرب النهضة الشرقية ودور مصر في هذا المجال.

ومن المرجح أن اهتمام الهلال بالفكرة الشرقية يعكس قوة ظهور الفكرة آنذاك من جهة، واختلاطها بمفهوم الأقطار العربية والدول المستعمرة في آسيا وإفريقيا وضرورة التخلص من الاستعمار من جهة ثانية.

وقد صاحب (٢٠) أطروحة و(٦) براهين هذه القضية، حيث وردت كلها مرة واحدة وأيدت الدعوة إلى التعاون الشرقي عدا أطروحة واحدة عكست صعوبة تحديد مصطلح الشرق والعروبة وهي الأطروحة التي قدمها سلامة موسى، وتفيد بشكل غير مباشر رفضه لمفهوم الشرق، وبالتالي رفضه لفكرة التعاون الشرقي، براهين أنه لا توجد حدود جغرافية أو إثنية أو دينية أو تاريخية لتحديد الشرق أو الغرب وتؤيد بقية الأطروحات التعاون الشرقي، حيث تقرر أن الشرق يعيش نهضة كما أنه له ماض عريق، وتهتم أطروحتان بفكرة انضمام الدول الشرقية إلى جمعية الأمم (عبد الفتاح يحيى، وزير خارجية مصر: الشعوب العربية والشرقية، كيف تتحدد؟ وكيف تتصرف؟ الهلال، عدد يونيو ١٩٣١).

أما وديع خالد حيث أفغانستان في مصر فيسير إلى أن الشعوب العربية هي شعوب شرقية، ويدعو نوري السعيد إلى تعاون العرب مع الأقطار الشرقية، ورغم الاتفاق على أهمية تعاون الأقطار العربية وتضامنها في مواجهة الاستعمار يقدم عمر طوسون نقداً حاسماً لفكرة قيام عصبية أمم شرقية ويدعو إلى انضمام كل قطر شرقي ببعث الروح القومية العميقة، ثم بعد ذلك يكون قيام عصبية أمم شرقية أمراً سهلاً أي أنه لا يرفض الفكرة ولكنه يرفض موعيد الدعوة والعمل إليها بدءاً من ضعف الأقطار الشرقية (حديث مع الأمير عمر طوسون، الهلال، يوليو ١٩٣٠) كذلك لا يرفض منصور فهمي الفكرة الشرقية، لكنه يدعو إلى التأليف والتوفيق بينها وبين الفكرة القومية المصرية والرابطة العربية

٢ـ الموقف من الجامعة الإسلامية

يؤيد خطاب الهلال في (٣) أطروحات تأسيس الحضارة المصرية أو العربية حديثة على أسس إسلامية مع الاقتباس من حضارة الحديثة، ويبدو الإسلام كرابطة تجمع الأمم الشرقية ويهتم منصور فهمي بالتأليف بين الإسلام والعروبة والقومية المصرية فيقول "يجب أن الرابطة الإسلامية لإحياء مظاهر المدنية"

ثالثاً نموذج تحليل الخطاب القومي العربي في الهلال ١٩٣٢ ١٩٣٩

دخلت الهلال في سبتمبر ١٩٣٢ عقدها الرابع، وبهذه المناسبة أعلن كل من أميل وشكري زيدان صاحبا المجلة والمشرفان على التحرير تجديدها وتحسينها فصارت تطبع " بالروتوغرافور "، وتوسعت في نشر الصور العادية والملونة والخرائط واستكتاب مشاهير الكتاب والأدباء علاوة على تغيير بعض أبواب المجلة لكن هذه التجديدات لم تشمل حجم وشكل الهلال أو سياستها التحريرية التي ظلت ثابتة فقد ظلت الهلال مجلة ثقافية عامة بعيدة عن السياسة والصراع الحزبي وكانت تصدر ٩ أعداد في أشهر، بالإضافة لكتابين تصدرهما المجلة في الشهرين الباقيين هدية للمشتركين.

د- وحدة التحليل والقائم بالاتصال

اهتمت الهلال بالثقافة العربية والإشادة بتراثها والتأكيد على أصالة العروبة وقدرتها على النهوض من جديد، وناقشت الهلال العلاقة بين العروبة والإسلام ودعت لوحدة العربية، وقد استخدمت الهلال فنونًا تحريرية مختلفة في مقدمتها المقال ثم تلاه الاستطلاع، وكان أكثرها اقترابًا من موضوع الدراسة استطلاع بعنوان " جبهة من شعوب عربية " واستطلاع آخر حول توحيد الثقافة بين الأقطار العربية، فضلا عن إصدار عدد خاص من الهلال في ابريل ١٩٣٩ بعنوان " العرب والإسلام في العصر الحديث "، وناقشت فيه قضايا عروبة مصر ودورها العربي والإسلامي وفكرة الخلافة الإسلامية

ويلاحظ أن الهلال حرصت على عدم إعلان موقفها تجاه هذه القضايا بشكل مباشر لكن اختيارها نشر بعض المواد يكشف عن موقفها، كذلك حرصت الهلال على الإشادة بالملوك والحكام العرب في هذا السياق أشادت الهلال في مقدمة عدد أبريل ١٩٣٩، بالملك فؤاد الذي " ورث حبه للعرب وتشجيعه لكل ما هو عربي عن جده البطل الفاتح إبراهيم باشا وعن والده الخديوي إسماعيل "(الهلال عدد أبريل ١٩٣٩، ص ١٩٨)

أما بالنسبة لمادة تحليل الخطاب القومي العربي بالهلال في هذه الفترة، فقد بلغت (١٠) موضوعات جاءت في ٣٤٥ صفحة و حوت على استطلاعين ثم رأي و (٨) مقالات، وقد مهدت الهلال لنشر الاستطلاع الأول حول جبهة من الشعوب العربية، وهل هي ضرورة؟ وماذا يجب تأليفها؟ بمقالين لأ.د عبد الرحمن عزام يدعو فيه لقيام إمبراطورية عربية، والثاني لمحمود عزمي وهي صوتًا مساندًا للاستطلاع. مما يرجح أن أفكار عزمي قد أثرت في صياغة الهلال لهذا الاستطلاع. وخاصة أنه استخدم مفهوم شعوب عربية الذي يستخدمه عزمي دائمًا

يكشف تحليل توزيع القائمين بالاتصال وتوزيع مادة التحليل عن سيادة أفراد

النخبة المصرية وإسهامهم الكبير في إنتاج مادة التحليل حيث شارك ١٠ مصريون من بينهم مكرم عبيد وطلعت حرب ومحمد حسين هيكل في إنتاج هذه المادة، في مقابل عبد الرحمن شهبندر السوري الجنسية واللبنانيين خليل مطران، وفؤاد حمزة وكان محمود عزمي هو أكثر منتجي مادة خطاب الهلال؛ حيث ساهم بمقالين أكد في مقدمة أحدهما أنه من أوائل المصريين الذين عنوا في العهد الحديث بالقضايا العربية نتيجة اتصاله بحملة ألوية الفكرة العربية في مؤتمر لوزان عام ١٩٢٢ وزيارته لكل الأقطار العربية (مهام صحفية. محمود عزمي، الهلال، عدد نوفمبر ١٩٣٨)

٢- تحليل الخطاب القومي العربي في الهلال

ناقش الخطاب القومي العربي في الهلال قضايا الفكرة والحركة القومية العربية وانتماء مصر من خلال (٤٠) أطروحة حصلت على (٧٥) تكرارًا و(٣٦) برهانًا حصلت على (٤٧) تكرارًا، وورهت عن القضايا التالية

أ- عروبة مصر

تراجع اهتمام خطاب الهلال في هذه المرحلة بقضية انتماء مصر، فقد وردت (٣) أطروحات فقط وبرهانان مؤيدة كلها وتدعم عروبة مصر، ويبدو أن عدم الاهتمام بهذه القضية في الهلال مقارنًا بالاهتمام الكبير الذي ظهر في أغلب صحف تلك الفترة.

ب- مكانة ودور مصر

بالنسبة (٣) أطروحات وبرهان واحد مكانة مصر ودورها في المحيط العربي، حيث يؤكد عبد الرحمن عزام أن مصر هي قلب الأمة العربية برهان أنه لا حياة لها إلا بالتضامن ويترتب على ذلك نتيجة مهمة هي وجوب أن تكون مصر طليعة الدعوة إلى الوحدة العربية (عبد الرحمن عزام، الإمبراطورية العربية وهل آن لها أن تتحقق؟ الهلال، عدد فبراير ١٩٣٤) أما محمد العشماوي وكيل وزارة المعارف المصرية فيرى لمصر دورًا قياديًا على طريق الاستقلال والنهضة دون أن يشير إلى هدف

الوحدة السياسية بين الأقطار العربية (محمد الصاوي، توحيد الثقافة بين الأقطار العربية هل هو أهم الوسائل لتقدم نهضة الشرق العربي؟، الهلال، عدد يناير، ١٩٣٩).

جـ- صلات بين الأقطار العربية

تناول خطاب الهلال تلك الصلات في (١٩) أطروحة و(٧) براهين توصف لمجموعة من الصلات الثقافية الاجتماعية تمثل في وحدة اللغة والثقافة والإقليم والحياة الاجتماعية والتاريخ، وتتكرر مكونات هذه الأطروحات بصياغات مختلفة مع إضافة عنصر الدين، وتنهض آمال النهضة والنضال من أجل الاستقلال مروابط معاصرة تجمع الأقطار العربية، وقد وردت الأطروحتان على لسان أحمد أمين (أحمد أمين، توحيد الثقافة بين الأقطار العربية الهلال، عدد يناير ١٩٣٩) ومكرم عبيد على الترتيب (مكرم عبيد، مصريون عرب، الهلال، عدد أبريل، ١٩٣٩) وفي إطار مقاومة الاستعمار كرابطة عربية جديدة تبرز فلسطين كتحد جديد أثبت وحدة العرب وتضامنهم وهكذا يجمع خطاب الهلال بين عناصر واعتبارات تاريخية وثقافية ذات سمة معنوية وعناصر أخرى مادية وواقعية ومستقبلية كوحدة الإقليم (زين الدين بركات، جبهة من الشعوب العربية، هل هي ضرورة؟، الهلال، عدد ديسمبر ١٩٣٨)، ومقاومة الاستعمار والصهيونية

د- مستقبل العلاقات العربية

ظهرت الدعوة للتعاون دون تحديد صيغة معينة في (٨) أطروحات وبرهانين، تشير في مجملها إلى أهمية التعاون والاتحاد من أجل النهضة ومن أجل تحرير فلسطين، كما توضح أطروحتان أن العصر أصبح عصر التكتل والتحالفات الكبرى، لذلك تقترح إحدى الأطروحات تأليف جبهة عربية تعود بالنفع وتطير عن العروبة وهكذا يربط خطاب الهلال القومي بين التعاون ومفاهيم النهضة والقوة، كما يبدو متأثر في دعوته للتعاون بظاهرة التكتلات والأحلاف التي انتشرت في أوروبا في الثلاثينيات وكانت بمثابة تمهيد لاندلاع الحرب العالمية الثانية، بين خطيب قضية السعوب الثقافي العربي بالدرجة الأولى ضمن اهتمامات خطاب

الهلال القومي بمسعل العلاقات العربية، إذ حصيب عن (٣٠) أطروحة و (٤) براهين تؤيد كلها الدعوة إلى التعاون أو الاتحاد الثقافي

وتركز الأطروحات المؤيدة للتعاون أو الوحدة الثقافية على أهمية توحيد الثقافة وبرامج التعليم كخطوة أولية تمهد لأي تعاون سياسي وتدعم من التعاون الاقتصادي، كما تشير أطروحات أخرى إلى أن الوحدة الثقافية أرسخ من الوحدة السياسية لأنها ترتبط بما هو روحي ومعنوي وتستند إلى تراث ثقافي واحد، لكن محمد العشماوي وكيل وزارة المعارف (محمد العشماوي، طه حسين، أحمد أمين. توحيد الثقافة بين الأقطار العربية هل هو أهم الوسائل لتقدم نهضة الشرق العربي؟ الهلال، عدد يناير، ١٩٣٩)، ومحمد حسين هيكل (محمد حسين هيكل الاتحاد الثقافي بين الأمم العربية، الهلال، عدد أبريل ١٩٣٩)، وطه حسين، ومحيي الدين بركات ينفصلون في أربع أطروحات على التوالي على أن توحيد الثقافة العربية لا يعني توحيد مناهج، برهان ضرورة أن تتفق مناهج مع احتياجات البيئة المحلية لكل قطر

أما قضية الوحدة السياسية فقد ناقشتها (٩) أطروحات وبرهان واحد حيث تعترض (٥) أطروحات قيام وحدة سياسية بين الأقطار العربية، وتقترح أشكالاً أخرى من التعاون الثقافي أو الاقتصادي. يقول أحمد لطفي السيد في ثلاث أطروحات "من الصعب بل والمستحيل أن تتحالف البلاد العربية تحالفاً سياسياً"، ويضيف في أطروحة ثانية "أن السعي لتأليف هذا التحالف وهم من الأوهام، برهان اختلاف الأوضاع السياسية في الأقطار العربية بين دول مستقلة وأخرى محتلة" (أحمد لطفي السيد جبهة من الشعوب العربية وهل هي ضرورة؟ الهلال، عدد ديسمبر ١٩٤٣) ويرى محيي الدين بركات أن الظروف السياسية في الأقطار العربية تجعل من الصعب تشكيل أحلاف سياسية

ويقدم محمود عزمي (٤) أطروحات تؤيد قيام ما يسميه بجبهة من الشعوب العربية انطلاقاً من أنها حقيقة قائمة، ويضيف في أطروحة ثانية " أن مصلحة

الشعوب العربية جميعًا تقضي بتأليف جبهتها لأجل الدفاع عن كيانها، ويطالب أن تقوم هذه الجبهة على أساس إقناع الرأي العام، وقد تأخذ طريق الأحلاف حتى تربي من بسببه الروح القدائية في مختلف أنحاء البلاد العربية (محمود عزمي، جبهة من شعوب عربية - ضرورة خلقها وكيفية تأليفها، الهلال، عدد نوفمبر، ١٩٣٨) ويلاحظ أن عزمي يستخدم مفهوم جبهة "بلاد العربية" بدل البلاد العربية بالنعت وذلك مراعاة كي يحول للاعتبارات الدقيقة بين العرب.

ويهتم (٥) أطروحات و ٤) برهنين بالدعوة إلى التعاون الاقتصادي بين الأقطار العربية، حيث يقترح خطاب الهلال على لسان محمود عزمي توحيد النقد ورفع الحواجز الجمركية ويتابع عزمي أن مصالح العرب الاقتصادية تحتم وحدة العرب ببراهين عديدة ثروة سكان كل قطر عربي، وتوافر إمكانيات هائلة لدى العرب مجتمعين. ويطرح الاقتصادي المعروف طلعت حرب تصورًا للتعاون الاقتصادي العربي يعتمد على أموال مصر وخبرة أبنائها أي إنه يقدم تصورًا لعلاقات تعاون مصرية عربية تعكس طموح البرجوازية المصرية آنذاك للتوسع في الدول العربية، سواء لاستثمار أموالها أو البحث عن فرص عمل جديدة للمصريين، ويتابع طلعت حرب أن كل ما يحيط بنا في العالم من تطورات سياسية واقتصادية يدفع نحو التعاون الاقتصادي العربي بما يعبر عن مستوى الخطاب المصري ضرورة التكتل الاقتصادي لمواجهة الأحلاف السياسية والتكتلات الاقتصادية الكبرى في أوروبا. طلعت حرب، التعاون الاقتصادي بين الأمم العربية، الهلال، عدد نوفمبر، ١٩٣٩)

هـ - أعداء الفكرة العربية

عرض خطاب الهلال الاستعمار من خلال (٦) أطروحات وبرهان واحد حيث يؤكد أن الاستقلال يمثل أحد شروط التحالف السياسي العربي لأن الاستعمار لن يسمح بقيام وحدة، ببرهان أن مصالح الاستعمار ترفض وحدة العرب. (عبد الرحمن شهبندر، نحو مستقبل العالم العربي، الهلال، عدد نوفمبر،

١٩٣٩) ومن ثمّ فإن الشرق العربي في حاجة إلى الوحدة كي يقاوم التيار الأوروبي الجارف كي يحول مكرم عبيد الذي يضيف أطروحة ثانية بضرورة تحقيق الاستقلال والنهضة والرخاء

ب- ملامح الفكرة العربية

عالج خطاب الهلال القومي العربي هذه القضية من خلال (٢٣) أطروحة و(٩) براهين تقدم عناصر عقلانية وأخرى رومانسية خاصة بالفكر والحركة العربية في هذه المرحلة. إن خطاب الهلال يعبر بخلفيته حيث يجري تأييد ومناقشة الفكرة العربية من حيث عوامل نجاحها والعقبات التي تواجهها وأساليب تحقيقها. وفي هذا الإطار يقدم محمود عزمي (٣) أطروحات تقارن بين العربية والشرقية والجامعة الإسلامية، ويخلص إلى أن الرابطة العربية هي الأقوى (محمود عزمي، أي نقدم الرابطة الشرقية أم الإسلامية أم العربية؟، الهلال، عدد نوفمبر ١٩٣٣)

أما عبد الرحمن عزام فيعرض من خلال (٥) أطروحات لقوة وضوح الفكرة العربية، ثم يعرض لشروط نجاح العرب في تحقيق وحدتهم وهي الإيمان بالنفس وبأن "الأمة العربية موجودة بصفات محددة وهي ليست في طور التكوين"، كما أنها - أي الأمة العربية - "وحدة اجتماعية وثقافية وليدة تاريخ مشترك"

ويقدم محمود عزمي شروط أخرى لنجاح الوحدة العربية في (٧) أطروحات هي عدم طغيان الاعتبار الديني على ما هو اجتماعي أو سياسي ببراهين مثل الاعتبار الديني في بلاد المغرب والسعودية واليمن واحتمال تخوف مسيحي لبنان، ولذلك فهو يطالب في مقال ثان بفصل الدين عن الدولة. وقد حصلت هذه الأطروحة على تكرارين عابرين لأهميتها في سياق برهنة عزمي الذي يضيف عقبة أخرى تتمثل في السمر العربي بفكرة العربية في مصر ببرهان "التردد بين الفرعونية والإسلامية الشرقية وفكرة الانتماء لثقافة البحر المتوسط"

ويتابع عزمي تحليل العقبات التي تواجه الجبهة فيحذر من عنوان معين

المشتغلين بالقضية العربية لأنهم يعتبرون " كل ما هو غير عربي وإن كان إسلامياً عدو للعرب والعروبة "، ويضيف أن تفاوت الأوضاع السياسية للبلاد العربية بين الاستقلال المقيد والانتداب يعني قيام جبهة العربية (محمود عزمي، جبهة من شعوب عربية، الهلال، عدد نوفمبر ١٩٣٨)

في مقابل هذا الطرح يظهر أطروحات تبشر بالفكرة دون تحقيق جوانب التصور أو التحفظات التي توجهها، ومن تلك الأطروحات ما يؤكد أن الوحدة العربية حقيقة قائمة كما أنها ستكون أعظم أركان نهضة الشرق، وتجتهد تلك الأطروحات في تعريف الحدود الجغرافية للبلاد العربية بأنها تمتد من الخليج إلى المحيط

ب- الموقف من الفكرة الشرقية

قدم خطاب الهلال ثلاث أطروحات تعالج الفكرة الشرقية انطلاقاً من موقف معترض ومؤيد للفكرة العربية، وتدور الأطروحات الثلاث التي وردت في مقالة محمود عزمي حول صعوبة تحقيق الفكرة الشرقية ومن ثم يصعب توحيد أهل الشرق، وقد أثبتت تلك الأطروحات إن الرابطة الشرقية تصطدم بالقضايا العربية والإسلامية فقط كما يفيد على مستوى الخطاب المضمر أن ما هو شرقي هو بالضرورة عربي وإسلامي.

ج- الموقف من الجامعة الإسلامية

ناقشت (٤) أطروحات و(٤) براهين الجامعة الإسلامية من موقف معارضة والرفض ورغم أن الرابطة الإسلامية أكثر فعالية مقارنة بالفكرة الشرقية إلا أن صاحب تلك الأطروحة هو محمود عزمي، حيث يؤكد قلة الاهتمام بالرابطة الدينية كأساس للنهضة أو مقاومة الاستعمار ببرهان أن الاستعمار يستخدم المذاهب الدينية في التفريق بين الأمة ويدعو عزمي للتمييز بين الإسلام كعقيدة والإسلام كنظام اجتماعي واقتصادي، ويخلص إلى صعوبة توحيد الدول الإسلامية في كتلة واحدة ببراهين اختلاف درجة التطور في كل بلد إسلامي، فضلاً عن الاختلافات الثقافية والتاريخية

المتشددين بالقضية العربية لأنهم يعتبرون " كل ما هو غير عربي وإن كان إسلامياً عدو للعرب والعروبة "، ويعتقد أن تفاوت الأوضاع السياسية لبلاد العربية بين الاستقلال المقيد والانتداب يعيق قيام جبهة العربية (محمود عزمي، جبهة من شعوب عربية، الهلال، عدد نوفمبر ١٩٣٨)

في مقابل هذا المنحى يظهر أطروحات تبشر بالفكرة دون تحقيق جوانب التصور أو التحديات التي تواجهها، ومن تلك الأطروحات ما يؤكد أن الوحدة العربية حقيقة قائمة كما أنها ستكون أعظم أركان نهضة الشرق، وتجتهد تلك الأطروحات في تعريف الحدود الجغرافية لبلاد العربية بأنها تمتد من الخليج إلى المحيط

ب- الموقف من الفكرة الشرقية

قدم خطاب الهلال ثلاث أطروحات تعالج الفكرة الشرقية انطلاقاً من موقف معترض ومؤيد للفكرة العربية، وتدور الأطروحات الثلاث التي وردت في مقال محمود عزمي حول صعوبة تحديد الفكرة الشرقية ومن ثم يصعب توحيد أهل الشرق، وقد أثبتت تلك الأحداث إن الرابطة الشرقية تصطدم بالقضايا العربية والإسلامية فتطغى عليها على مستوى الخطاب المصري لأن ما هو شرقي هو بالضرورة عربي وإسلامي

ج- الموقف من الجامعة الإسلامية

ناقشت (٤٠) أطروحات و(٤٤) براهين الجامعة الإسلامية من موقف المعارضة والرفض ورغم أن الرابطة الإسلامية أكثر فعالية مقارنة بالفكرة الشرقية إلا أن صاحب تلك الأطروحة هو محمود عزمي، حيث يؤكد قلة الاهتمام بالرابطة الدينية كأساس للنهضة أو مقاومة الاستعمار بدعوى أن الاستعمار يستخدم المذاهب الدينية في التفريق بين الأمة ويدعو عزمي للتمييز بين الإسلام كعقيدة والإسلام كنظام اجتماعي واقتصادي، ويخلص إلى صعوبة توحيد الدول الإسلامية في كتلة واحدة بدعوى اختلاف درجة التطور في كل بلد إسلامي، فضلاً عن الاختلافات الثقافية والتاريخية

ط - الموقف من الأقليات

يبدو بوضوح اهتمام الخطاب القومي العربي في الهلال الخصيب بالأقليات في الأقطار العربية وفي إطار أي مشروع للوحدة العربية، والواقع أن هذا الاهتمام يعكس نضج وتطور هام في بنية الخطاب القومي العربي. في هذا السياق يقدم خطاب الهلال (٣) أطروحات وبراهين وحدوية، ويتصور محمود عزمي في إحدى الأطر خطاب العناصر غير العربية كأعضاء متوحدة للعروبة برهان موقف الأكراد في العراق، بينما يرى طه حسين أن الدين بين الأمم العربية واحد في أغلبه.

أما غير المسلمين فيرتبطون باللغة والأدب بما يفيد أن الثقافة العربية توحد بين العرب على اختلاف أديانهم، ومعروف أن طه حسين كان يقر بوحدة الثقافة العربية، إلا أنه لا يقر بقيام رابطة سياسية بين العرب. ويؤكد فؤاد حمزة وكيل وزارة الخارجية في المملكة العربية السعودية على أن الأقلية غير المسلمة تتمسك بالعروبة. هكذا تصبح الثقافة العربية والعروبة على مستوى الخطاب المعاصر بمثابة البوتقة التي تجمع وتصهر الأقليات العرقية غير العربية وكذلك غير المسلمين من مسيحيين ويهود.

المبحث الثاني

التحليل النقدي للخطاب الإعلامي

يتناول هذا المبحث عرضًا شاملاً لمثال قدمه فيركلاف لتوضيح أبعاد إطار عمل التحليل النقدي للخطاب، ويتناول هذا المثال تقريرًا صحفيًا نشر عام ١٩٨٥ بجريدة The Sun البريطانية بشأن وثيقة حكومية (تقرير حكومي) عن تعاطي المخدرات (انظر النموذج في الشكل رقم ٢).

يهدف هذا المثال إلى إعطاء القراء نظرة سريعة عن كيفية تطبيق إطار عمل التحليل النقدي للخطاب في حالة معينة. لذلك يقول فيركلاف " سوف نتقي بمعاني بعينها، على سبيل المثال من أن نتحدث عن استهلاك الجمهور هذا التقرير ومن المحاور تقديم تحليل كامل، وسوف أنحرف قليلاً عن الترتيب الذي قدمت به إطار عمل التحليل النقدي، فأقوم أولاً بتحليل هذا النص كحدث اتصالي من ناحية "ممارسة الخطاب" و" النص" مع تأجيل مناقشة الممارسة الاجتماعية الثقافية حتى أقوم بالتعليق على ما يدل عليه هذا المثال بشأن نظام الخطاب الإعلامي "

الحدث الاتصالي

تتضمن ممارسة الخطاب هنا تحويلات للنص من مصدريه، فتقرير اللجنة مشار إليه في التقرير الإخباري أضيف إليه بعض وقائع مؤتمر صحفي أو حديث صحفي تمت الإشارة إليه في الفقرة قبل الأخيرة من تقرير جريدة الصن، ومن المتوقع أن النص قد عبر عددًا من النسخ حيث تم تحويله من خلال سلسلة من الأحداث الاتصالية المتصلة معًا.

وممارسة الخطاب معقدة بمعنى أنها تؤلف بين ملامح الخطاب المستهدف وخطاب الاستهلاك واللغة العامية غير الرسمية المستخدمة بالحياة الخاصة private life ويتضح ذلك في تحليل التناص، والذي ينظر إلى النص من منظور ممارسة

الخطاب، حيث هذه التشابك بين الأنواع الأدبية والخطابات المختلطة معًا داخل ذلك النص

وسوف أركز على الخطابات discourses، وخصوصًا كيف تم الوصل بين الخطابات الرسمية المتعلقة بتهريب المخدرات وتطبيق القانون وبين الخطابات الجماهيرية المتعلقة بتهريب المخدرات وتطبيق القانون، وذلك في إطار نوع أدبي من الأخبار الواقعية المهمة. ثم يجب أن نقارن ذلك مع ما جاء في تقرير النص وهو التقرير المصدري، والذي جاء فيه "يجب أن تفكر الحكومة في استخدام القوات البحرية الملكية والقوات الجوية الملكية بالاضطلاع بمهام المراقبة بالرادار أو بالطائرات أو بالسفن، فذلك نوصي بضرورة تكثيف جهود تطبيق القانون ضد مهربي المخدرات من جانب مصلحة الجمارك والشرطة والخدمات الأمنية التابعة لجلالة الملكة، وربما أيضًا من القوات المسلحة"

ينقل التقرير المنشور في جريدة (The Sun) عن الخطابات الرسمية الواردة بالمقتطف السابق. ويتضح ذلك بصفة خاصة عند النقل المباشر عن التقرير وعن رئيس اللجنة المشار إليه، ولكنه يظهر أيضًا في أجزاء أخرى من التقرير

والملمح في النص – موضوع هذا التحليل – هو استخدام الخطابات الرسمية والجماهيرية العامية، من رغم تباينها داخل ما يسمى تقليديًا بـ" الحديث المنقول" reported speech، أو بعبارة أدق بالأخبار عن المصدر المكتوب (التقرير الحكومي) برغم أن المقتطف المنشور يشار إليه باعتباره مقتبسًا مباشرة من التقرير، إلا أن الحدود غير واضحة بين ما قاله التقرير الرسمي بالفعل والنسخة المحولة إلى خطاب موجه للجمهور العام من جانب الجريدة.

وعلى سبيل المثال، يتخذ العنوان الرئيسي شكل الاقتباس المباشر، رغم عدم وضعه بين قوسين. ويبدو من تقرير النص أن الجريدة ذاتها تستحوذ على حق المجنة في الدعوة إلى الحرب، رغم أن هذه الدعوة مترجمة إلى خطاب إعلامي

جماهيري أو عامي فتصبح طلبًا بدلاً من توصية. ونجد هنا تحرير الحديث الأصلي. فالنص الأصلي "يجب على الحكومة التفكير في استخدام القوات" يتحول في النص المنشور إلى "استدعوا القوات المسلحة".

ولبيان ذلك بالتفصيل ينقل فيركلاف عن التحليل اللغوي لنص ويقول: "سوف أركز على بعض الملامح اللغوية السطحية نسبيًا المتعلقة بالمعجمية والاستعارة أو المجاز وفق لمدرسة الخطاب النقدية وعلاقات التناص المعقدة"، ويتسم هذا النص (تحرير النص) بعدم التجانس نسبيًا من الناحية اللغوية. وعلى سبيل المثال في المقتطفات المقتبسة بشكل مباشر من التقرير الرسمي، يستخدم تقرير النص نفس اللفظ "تجار traffickers" الذي يستخدمه التقرير للإشارة إلى الذين يتعاملون في المخدرات. بينما يستخدم التقرير الصحفي ألفاظًا عامية لا توجد سابقًا في التقرير للإشارة إلى هؤلاء التجار في أماكن أخرى من المقال مثل "المهربون" و"بائعون متجولون pushers and peddlers".

ولكن حتى في الأجزاء التي يتم فيها تلخيص التقرير الحكومي بدلاً من اقتباسه أو النقل المباشر عنه، يستخدم الخطاب الرسمي أحيانًا تعبيرات مثل القوات المسلحة، وتطبيق القانون والخدمات الأمنية كي يجب أن نقارن بين كلمة forces في العنوان الرئيس ومصطلح "القوات المسلحة armed forces" في الفقرة الأولى من التقرير الصحفي، حيث نجد أن الكلمة الأولى تنتمي إلى الخطاب الجماهيري أو العامي بينما ينتمي مصطلح "القوات المسلحة" إلى الخطاب الرسمي.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: لماذا يستخدم تحرير النص مثل هذين المزدوجين من المصطلحات؟ ربما لأنه يترجم الخطاب الرسمي إلى خطاب جماهيري أو عامي. وبذلك يعطي قوة شعبية للأصوات الرسمية مع الحفاظ في نفس الوقت على مرجعية الخطاب الرسمي. إنه موقف ووجهة نظر الجريدة يعبران عن تناقض. وهذا التناقض يظهر في عدم تجانس اللغة. ويشير هال Hall وآخرون إلى تجاه في الإعلام نحو "ترجمة وجهات النظر الرسمية إلى عبارات عامة، بحيث

يجعل وجهات النظر الرسمية أقرب إلى فهم غير المثقفين، كما يمنح المواقف الرسمية قوة شعبية وتقرب شعبيًا على طريق تطبيعها دفعًا أنوى فهم الجماهير المتوقعة.

وتلاحظ أن استخدام المعجمية العامية في تقرير جريدة الشعب له وظيفة فكرية ووظيفة شخصية بينية. فهذا الاستخدام يمثل عرضًا محببًا للوقائع الاجتماعي للنص، أي عرضًا متحيزًا للوقائع، ولكن في نفس الوقت، عندما تستخدم الجريدة هذه المعجمية العامية فهي تطالب ضمنيًا بمشاركة الجماهير في الحياة العادية وفي التجربة المعتادة معها، فضلاً عن إيجاد علاقات تضامن بين الجريدة وجمهور القراء. ونكس هذه المطالب الضمنية تبدو مقبولة عبر استخدام معجمية الخطاب الرسمي أيضًا، وبالتالي فهذه المعجمية لها وظيفة ثلاثية تنطلق من عرض الأحداث representations والهويات identities والعلاقات relations. ويجب أن نلاحظ أيضًا كيف تعمل الملامح العلاماتية المرئية Visual semiotic مع اللغة في اتجاه معين. حيث نجد المخاطب الجماهيري أو العامي رئيس الخطاب الرسمي هو الذي يسيطر على العناوين الرئيسية الواضحة للنظر.

وتجدر ملاحظة الاستعارة التي تصور مكافحة تجار المخدرات مثل خوض معركة حربية، ورغم أن هذه الاستعارة توجد بالفعل في موقع واحد من التقرير، إلا أنها مقدمة باستفاضة في تقرير جريدة الشعب بطرق غائبة تمامًا عن التقرير الحكومي الأصلي، أي تعبئة القوات المسلحة (مع استخدام لفظ عامي هو rol up يعني "استدعاء") التي وردت بالعنوان الرئيسي، وتصوير تجارة المخدرات بوصفها عدوًا في الفقرة الأولى من التقرير.

والاستعارة السابقة ذات أهمية من حيث مطالبة الجريدة ضمنيًا بعلاقة تضامن وهوية مشتركة مع جمهور القراء، وتستفيد الجريدة من فكرة الحرب لإثارة الذاكرة الشعبية والثقافة الشعبية، مع ادعاء مشاركة القراء في تلك الذاكرة والثقافة. كذلك تربط هذه الاستعارة بين هذا النص - من ناحية التناص أو الصيغة النصية المتبادلة

وبين التغطية الإعلامية الشعبية موضوع المخدرات عبر فترة طويلة من الزمان حيث إن عرض هذا الموضوع كحرب ضد تجار المخدرات يعتبر من الملامح القياسية للخطاب.

ومثل هذه الاستعارة ذات مضمون قوي أيديولوجيا، فهي تفسر قضية محددة بشكل يؤدي إلى تهميش الأنظمة الخطابية الأخرى بعض المجموعات المعارضة التي تعارض المخدرات، لكنها تنظر إليها كرمز للتخريب الشامل الناتج عن النظام الرأسمالي وسرعة التغيير المرتبط بآثار البطالة ومشاكل عدم الملاءمة.

الشكل رقم (٢)

مقتطف من جريدة The Sun بتاريخ ٢١ مايو ١٩٨٨

عنوان تمهيدي: في تحذير من أعضاء البرلمان: بريطانيا تواجه حرباً ضد التجار القاتلين

٢ عنوان رئيسي: استدعوا القوات لمعركة ضد المخدرات: يقسم ديفيد كمب David Kemp

٣ يجب استدعاء القوات المسلحة لمكافحة غزو شامل من تجار المخدرات الانتهازيين – هذا ما طالب به أعضاء البرلمان بالأمس.

٤ إن تجار الكوكايين يشكلون أكبر تهديد واجهته بريطانيا في وقت السلم، ويمكن أن يدمر طريقة الحياة في البلاد كما قالوا.

٥ ويريد أعضاء البرلمان من الوزراء أن يفكروا في استخدام الأوامر البحرية ومعونات الجوية الملكية لتتبع السفن المشتبه في نقلها للمخدرات، والتي تقترب من شواطئنا.

٦ وداخل البلاد: يجب تكثيف تطبيق القانون من جانب الجمارك والشرطة والمخابرات الأمنية

الأرباح

٧- قامت لجنة الشؤون الداخلية التي تضم كافة الأحزاب بزيارة أمريكا وقد أصيبوا بصدمة عميقة مما رأوه

٨- وفي واحد من أقسى تقارير مجلس العموم منذ سنوات حيث يتجديه اللجنة التي يرأسها المحامي " توري Tory " عضو البرلمان السير إدوارد جاردنر Sir Edward Gardner، قال إن " يواجه المجتمع البريطاني تهديدًا بشعًا تهديد أخطر من صناعة المخدرات الإرهابية إن المتاجر بجمعهم يستغل حالة من استغلالهم للضعف البشري ونشر البؤس ولابد من جعلهم يفقدون كل شيء ، بيوتهم وأموالهم وكل ما يمتلكونه والذي جاء من أرباحهم من بيع المخدرات "

٩- قال السير / إدوارد بالأمس " مؤمن بأن الاتجار في المخدرات يعادي الاحتلال ويجب أن تعكس العقوبة ذلك "

ومن المتوقع أن تصدر الحكومة قوانين أكثر صرامة في الخريف

نظام الخطاب

إذا انتقلنا إلى المنظور الثاني داخل التحليل النقدي للخطاب، فإن السؤال هو ما الشكل هو نظام الخطاب؟

- نمط الخطاب the discourse type هنا نحن بصدد قصة خبرية واقعية ومهمة من الصحافة الشعبية، ويمثل الصفة بمختلف نمط الخطاب عن أنماط مادة الصحفية الأخرى التي ترتبط بعلاقة خيار choice relation داخل نظام خطاب، مثل القصص الإخبارية التي تتضمن تعليقًا على أنباء أو آراء حول قضية معينة

ويتميز نمط الخطاب على الدراسة ببنية عامة نمطية بالنسبة لهذا النوع من القصص الإخبارية الواقعية والمهمة hard news. فهناك " واه " تتكون من عنوان رئيسي (في الواقع هناك عنوان رئيسي وعنوان تمهيدي) وفقرة رئيسية (مقدمة) تعطي لب القصة، ثم " عدد " من الفقرات التي تعطي تفاصيل القصة من مختلف الاتجاهات، وأخيرًا فقرة نهائية (خاتمة) تعطي إحساسًا بتقديم حل للقضية

في هذا النمط الخطابي الوارد في نظام الخطاب المستخدم في جريدة The Sun

وغيرها من صحف التابلويد tabloids بخلاف الصحف ذات الصفحات الكبيرة (استاندر). يتم التعبير عن هذه النوعية من الأخبار بمزيج من الخطابات الرسمية والجماهيرية أو العامية، كي يتضح من المناقشة السابقة. وبالتالي فنمط الخطاب الوارد في هذا المثال مستقر ومعروف سببًا من ملامح الخارجية الواضحة بعلاقات الاختيار choice relations، ونجد أيضًا الأسلوب العامي الجماهيري الذي يشير إلى إعادة رسم الحدود بين نظام الخطاب (الخارجي) العام ونظام الخطاب الخاص في إطار نظام الخطاب الإعلامي the media order of discourse من أجل إنتاج هذا الأسلوب الهجين بين ما هو رسمي وعام.

ومن ملامح علاقات التسلسل chain relations الواضحة في هذا التقرير، هو طريقة استخدام وتحويل مصادر المعلومات وعرضها في نص التقرير الصحفي. وقد سبقت الإشارة إلى هذه الأنواع الفرعية في الأصوات، والتي تتعلق أحيانًا بمعرفة هل ينقل التقرير الصحفي كلمات التقرير الأصلي أم يعيد صياغة هذه الكلمات، مع تغييرها بشكل جذري. وأعتقد أن هذه الأنواع الفرعية شائعة في هذا النمط الخطابي. ومن ترابط في هذه الحالة - وبصفة عامة أيضًا - باختلاط الأنواع الأدبية، أي التأليف بين النوع الإخباري الواقعي وبين عناصر من النوع الإقناعي.

يلاحظ بصفة خاصة أن العنوان الرئيسي يحمل صيغة الأمر، كما يبدو - كما أشرت سابقًا - من المقالة، فبالإضافة إلى نشر الأخبار يدعو تقرير جريدة الصن إلى شن حملة من أجل سياسات أو إجراءات معينة.

ومن الملامح الأخرى لعلاقات التسلسل الخطابي، نجد أن تقرير الصن يرتبط - عن طريق التناص intertextuality - بسلسلة أخرى تتكون من التغطية السابقة لموضوع المخدرات في وسائل الإعلام الشعبية. ويعتبر هذا النوع من التسلسل سمة عامة إلى حد كبير في النصوص الإعلامية.

أخيرًا وباختصار، بالنسبة إلى الممارسة الاجتماعية الثقافية the sociocultural

practice التي شكلت استقرار هذا النوع من النمط الخطابي مجد في جريدة الصن تقوم بالإعلام عن أحداث مصيرية في مجال العام قرائها بمجال خاص (محلي) في ظل ظروف اقتصادية شديدة ومنافسة. لذلك فتنظيم نوع جريدة يمزج الشخص الشخصي هنا داخل السياق الاقتصادي الأوسع نطاقًا حيث يتم التركيز على الاستهلاك والمستهلكين ووقت الفراغ.

أما داخل السياق الثقافي الأوسع نطاقًا والذي يتضمن القيم والتقاليد فإن انتشار العلمانية قد يسبب مشكلات للعلاقات السلطة التقليدية ويغير تغييرًا عميقًا في الأبنية التقليدية ومفاهيم الهوية الذاتية. إن هذه الملامح بسياق الاجتماعي الثقافي تشكل وتتشكل في ممارسة الخطاب بخصوصه، بالإضافة إلى التحول تجاه تلك المقاومة عبر فترة من الزمان. إذ تلعب الممارسة الخطابية دور التوسيط بين هذه البنية الاجتماعية الثقافية غير المستقرة والنصوص غير المتجانسة.

و بالنسبة للجانب السياسي لهذا النوع من التقارير الصحفية، يمكن القول بأنه من أهم الآثار المتوقعة والمهمة نزعة المصادر الرسمية والمواقف الرسمية إلى خطاب عامي أو جماهيري هو مساعدة هذه المصادر والمواقف الرسمية على اكتساب الشرعية لدى جمهور القراء وهو في هذه الحالة فئات الطبقة العاملة البريطانية. ويشير فيركلاف إلى أننا نحتاج إلى فحص عملية استهلاك هذه الأخبار والتقارير أي كيف يقرأ هؤلاء الناس تلك المقالات لمعرفة الآثار المعنية بالتحديد.

ويبدو أن هذه العملية تمثل استراتيجية قوية لضمان استمرار هيمنة القوى الاجتماعية، على أساس تجنب شتت الممارسات بهدف إعطاء بعض الشرعية لكل من الخطاب الرسمي والخطاب الجماهيري أو العامي، وذلك من خلال الحفاظ على الخطاب الرسمي إلى جانب الخطاب العامي، ما يعد ضمانًا لاستمرار وتزايد شرعيتها. بينما يتم استخدام الخطاب العامي كأداة لتوصيل "الرسائل" الرسمية

وفي نفس الوقت، تلعب الجريدة دورًا إقناعيًا بشأن حملة لتأييد سياستها من

التوصيف الواردة بالتقرير الرسمي. ويمكن أيضًا من خلال استعارة خروب، مما يساعد على استدامة وإعادة إنتاج أقرباب أيديولوجيه representations مسيطرة عن موضوع المخدرات.

وأعتقد أن هذا المثال يعتبر نموذجًا لنمط الخطاب المستقر نسبيًا. ولكن بعادة الهيكلة داخل إطار الخطاب الإعلامي للحدود بين نظام الخطاب العام ونظام الخطاب الخاص وظهور أشكال متنوعة من الخطاب العام الجماهيري نجد ملامح بارزة بالإعلام الحديث الذي يتطلب إجراء تحليل تاريخي. فهو تدريجيًا هو تركيب أو تأليف يتعين مكوّن من نظام الخطاب العام ونظام الخطاب الخاص، وقد أصبح هذا التركيب تقليديًا ومألوفًا.

ولكن الصورة أكثر تعقيدًا من ذلك إلى حد ما، بمعنى أنه في سياق إعادة التفاوض المستمر حول الحدود العامة والخاصة - قد يفهم عدم تجانس مثل هذه النصوص في ظل بعض الظروف كنوع من التناقض، وقد يصبح هذا النمط الخطابي مستقر نسبيًا غير مستقر (Fairclough, 1995).



خاتمة الكتاب

لعبت مدارس واتجاهات تحليل الخطاب مجتمعة دورًا مهمًا في التقريب بين تحليل الخطاب من ناحية، ودراسة الإعلام من ناحية ثانية، لكنها لم تنجح في بلورة أطر نظرية واضحة أو إجراءات منهجية محددة متفق عليها لعملية تحليل الخطاب الإعلامي. وذلك على الرغم من ظهور بوادر تدعو إلى التأليف بينها أو استعارة بعض المفاهيم التحليلية ومصطلحاتها، أو إعادة تعريفها واستخدامها في سياقات جديدة. ويبدو أن غياب الاتفاق بين مدارس تحليل الخطاب يرجع إلى اختلاف وتباين التخصصات ومجالات الدراسة والمنطلقات الفكرية والمعرفية للمنتمين لهذه المدارس، إذ ربما أصبح الاختلاف وعدم الاتفاق أحد مظاهر عصر ما بعد البنيوية أو عصر ما بعد الحداثة الذي نعيشه، حيث يؤكد إيهاب حسن أن اللاحسم والذاتية هما أبرز سمتين لهذا العصر (بيتر بروكر، ١٩٩٥، ص ص ٢٩-٣٦).

ومع ذلك يمكن رصد أهم نقاط الاختلاف والاتفاق بين مدارس تحليل الخطاب في الآتي:

١- يمكن استخدام تحليل الخطاب في كافة مجالات البحوث الاجتماعية وفي مقدمتها البحوث الإعلامية، لكن لا يمكن استخدام تحليل الخطاب كوسيلة للتحليل منفصلة عن مواقفه الأساسية النظرية والمنهجية. فكل منهج لتحليل الخطاب لا يمثل فقط طريقة لتحليل البيانات، وإنما يمثل وحدة نظرية ومنهجية متكاملة أي حزمة كاملة، وتتضمن هذه الحزمة:

أولاً: الافتراضات الفلسفية المتعلقة بالوجود Ontology، ونظرية المعرفة Epistemology، ودور اللغة في البناء الاجتماعي للعالم.

ثانيًا: النموذج النظرية

ثالثًا: الإرشادات المنهجية التي توضح كيفية تناول أحد مجالات البحث بالدراسة والتحليل

رابعًا: تقنيات محددة للبحث

ففي مجال تحليل الخطاب تتشابك الأسس النظرية والمنهجية مع طريقة البحث، لذلك يجب أن يقبل الباحثون الأسس الفلسفية أولاً حتى يستخدمون تحليل الخطاب كوسيلة في إجراء الدراسة التطبيقية

٢ إن التكامل والترابط النظري والمنهجي كأساس لعملية تحليل الخطاب ظل مسيطرًا لفترة طويلة على مدارس واتجاهات تحليل الخطاب من هنا ظهرت كل مدرسة وأنتجت أعمالاً مهمة بشكل منفصل عن بقية المدارس والاتجاهات، وذلك كنتيجة طبيعية لاختلاف وتباين الأسس النظرية والمعرفية لكل منها، وبالتالي بدت كل مدرسة وكأنها جزيرة منفصلة رغم أن كل منها يعمل تحت مسمى تحليل الخطاب. لكن هذا الوضع تغير حيث ظهر اتجاه يعمل على الجمع والتأليف بين المفاهيم والأسس النظرية والمعرفية السائدة في مدارس واتجاهات تحليل الخطاب

إن مثل هذا العمل متعدد المناظير (جمع منظور) multiperspectival ليس فقط مشروعًا، ولكنه يعتبر قيمة موجبة في معظم أشكال تحليل الخطاب. ومغزى وراء ذلك أن المناظير المختلفة تعطي أشكالاً مختلفة من المعرفة بشأن ظاهرة معينة، بحيث تنتج معًا فهمًا أوسع نطاقًا. ولا يعني ذلك انتقاء عناصر مختلفة من مجموعة ما من المناهج المتباينة تمامًا بدون تقييم جاد للعلاقات بينها. فتعدد المناظير multiperspectivalism يتطلب تقييم الأهمية النسبية للمناهج المختلفة المختارة وتعيين نوع المعرفة التي يمكن أن يوفرها كل منهج مع تعديل المناهج المستخدمة وفقًا لهذه الاعتبارات (Marianne Jorgensen & Louise Phillips, 2002)، بمعنى أن الباحث هنا يقوم بعملية نقدية تركيبية وليس مجرد عملية تجميع لعناصر من

بين مناهج ومفاهيم نظرية متناقضة، كذلك فإن عملية التأليف التركيبي تعتمد أحيانًا على إعادة تعريف أو إعادة استخدام المفاهيم والمسميات ومعرفتها، وذلك وفق منهج تكامل متعدد الرؤى والمناظير.

والثابت أن أغلب مناهج الخطاب تقوم على أساس التفسيرية الاجتماعية Social Constructionism، ومصطلح " التفسيرية الاجتماعية " مصطلح واسع تندرج تحته مجموعة متنوعة من النظريات الحديثة عن الثقافة والمجتمع. فتحليل الخطاب يعتبر واحدًا من عدة مناهج تفسيرية اجتماعية، ولكنه من أكثر هذه المناهج شيوعًا في الاستخدام. لكن المفارقة أن كثيرًا من الباحثين يستخدمون مناهج لها بعض خصائص تحليل الخطاب دون تعريفها بأنها تحليل للخطاب.

وتعتبر فيفيان بار Vivien Burr من صعوبة إعطاء وصف واحد يحاول تغطية كافة المناهج التفسيرية الاجتماعية نظرًا لتعدد تلك المناهج وتباينها، ورغم ذلك، تذكر " فيفيان بار " أربعة فروض تشترك فيها كافة تلك المناهج وهي:

أولاً: منهج نقدي تجاه المعرفة المسلم بها يتأسس على أن معرفتنا بالعالم يجب ألا تُعامل على أنها الحقيقة الموضوعية. فالواقع لا يصل إلينا إلا من خلال فئات معينة، بحيث إن معرفتنا وتصوراتنا للعالم لا تعتبر انعكاسات للواقع الحقيقي، بل هي نواتج طريقتنا في تقسيم العالم إلى فئات، أي نواتج للخطاب بمصطلح تحليل الخطاب.

ثانيًا: الخصوصية التاريخية والثقافية، فالبشر هم أصلاً مخلوقات تاريخية وثقافية ونظرتنا إلى العالم ومعرفتنا به هي " نواتج التفاعلات فيما بين الناس في مرحلة تاريخية معينة "، وبالتالي فإن الطرق التي نفهم ونتصور بها العالم ذات خصائص معينة ومحددة تاريخيًا وثقافيًا. وبناء على ذلك كان من الممكن أن تكون نظرتنا للعالم وهوياتنا مختلفة، كما يمكن أن تتغير عبر الزمان.

إن هذه النظرة التي تعتبر كل معرفة مشروطة Contingent أي متوقفة على



عوامل أخرى - تعبر عن موقف مناقض للنظرة الأصولية Foundational view، والتي ترى بإمكانية تأسيس المعرفة على قاعدة صلبة، تتجاوز حدود الأفعال البشرية المتوقفة عليها، وعلى هذا الأساس فإن الخطاب هو شكل من أشكال الفعل الاجتماعي الذي يلعب دوراً في إنتاج العالم الاجتماعي - والذي يتضمن المعرفة والهويات والعلاقات الاجتماعية - وبالتالي في الحفاظ على أنماط اجتماعية معينة.

ثالثاً: الصلة القوية بين المعرفة والعمليات الاجتماعية، حيث إن طرق البشر في فهم العالم تنشأ وتستمر بواسطة العمليات الاجتماعية، فالمعرفة تنشأ من خلال التفاعل الاجتماعي لأننا نشيد حقائق عامة داخل هذا التفاعل الاجتماعي.

رابعاً: تتشكل الصلة بين المعرفة والعمل الاجتماعي في إطار نظرة معينة للعالم وبالتالي تصبح بعض أشكال التصرف طبيعية، وتصبح أشكال أخرى مستهجنة أو غير متصورة. حيث إن فهم العالم بطرق مختلفة يؤدي إلى أفعال وتصرفات اجتماعية مختلفة، وبالتالي يكون للبناء الاجتماعي للمعرفة والحقيقة آثار اجتماعية.

إن الافتراضات الرئيسية للتفسيرية الاجتماعية Social Constructionism تضرب بجذورها في النظرية الفرنسية ما بعد البنيوية Post- Structuralist وبعضها للنظريات التي تلجأ إلى تعميم أفكارها على كل الناس وكل العالم مثل: الماركسية والتحليل النفسي، ولكن مازالت " التفسيرية الاجتماعية " ومرحلة " ما بعد البنيوية " عناوين تثير الجدل ولا يوجد اتفاق عام حول العلاقة بينهما (Marianne Jorgensen & Louise Phillips, 2002).

وقد تعرضت الافتراضات السابقة لكثير من الانتقادات، حيث يرى بعض المفكرين والباحثين أنه إذا اعتبرت أن كل معرفة وكل الهويات الاجتماعية "Contingent" مشروطة - أي متوقفة على عوامل أخرى - فيتبع ذلك أن كل شيء غير ثابت ويتغير، وأنه لا يوجد أي قيود أو انتظام في الحياة الاجتماعية.

لكن معظم التفسيريين الاجتماعيين يرون الواقع الاجتماعي أكثر تعقيداً من

القواعد والنظم المعروفة، ورغم أن المعرفة والهويات تكون دائمًا مشروطة Contingent من حيث المبدأ، إلا أنها تصبح غير مرنة نسبيًا في مواقف محددة. حيث تضع المواقف المحددة تقييدات على الهويات التي يمكن أن يضطلع بها الفرد وعلى التصريحات التي يمكن قبولها كتصريحات.

٣ باستثناء الدراسات اللغوية التقليدية التي تستخدم مفهوم الخطاب، يلاحظ الباحث حضورًا مؤثرًا وقويًا لمنهجية ميشيل فوكو ومفاهيمه الأساسية في تحليل الخطاب الإعلامي، مع وجود اختلاف في درجة اعتماد كل مدرسة على منهجية فوكو. في هذا الإطار يمكن القول بأن مدارس تحليل الخطاب الألمانية أكثر تأثرًا بمنهجية ميشيل فوكو، مقارنة بأعمال فيركلاو وفان دايك، وقد نجح الأخير في دمج وتطوير البعد الإدراكي في عملية تحليل الخطاب، بينما نبه فيركلاو الانتباه إلى أهمية تحليل ممارسات إنتاج النصوص الإعلامية واستهلاكها، أي استقبال الجمهور وتفاعله مع الخطاب الإعلامي، فضلًا عن اهتمامه بعملية بناء النصوص والخطابات الإعلامية.

٤ إن التوجه النقدي في تحليل الخطاب - والذي أصبح أحد أهم السمات المميزة لمدارس تحليل الخطاب - ارتبط بالتأثر الواضح بأعمال غرامشي والتوسير ومدرسة فرانكفورت ومدرسة التحليل الثقافي وأعمال ميشيل فوكو ورولان بارت، وأخيرًا أعمال عالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو، وقد تجسد هذا التوجه النقدي في التركيز على دراسة علاقات السلطة والهيمنة داخل المجتمع والأيديولوجية. وكذلك اختيار موضوعات الدراسة التطبيقية تكون ذات طابع اجتماعي وسياسي مؤثر، مثل قضايا التمييز العنصري والتمييز ضد المرأة وضد الأقليات والفئات المهمشة في المجتمع.

في هذا الإطار تلعب الأيديولوجية دورًا مهمًا في التحليل النقدي للخطاب، فاللغة اختيارات أيديولوجية، كما أن الخطاب ممارسة ذات طابع أيديولوجي من حيث التكوين والتأثير، مع ملاحظة أن مدارس تحليل الخطاب تستخدم مفهوم

للأيديولوجية والسيطرة الأيديولوجية أقرب ما يكون للعراسمية الحديثة. حيث يتفق فان دايك وروث ووداك وفركلاو على أن ممارسة القوة في مجتمعات الديمقراطية الحديثة لم تعد تعتمد على الإكراه بالدرجة الأولى بل على الإقناع، أي أصبحت عملية أيديولوجية بالمعنى الجرامشي. ويرى فان دايك أن الأيديولوجية هي أطر تفسيرية تعتبر أساساً لإدراك المواقف الاجتماعية (Dellinger,1995).

ولاشك أن الاتفاق على فكرة الهيمنة عبر الإقناع وتحقيق إجماع وتحالف شكل داخل المجتمع – أو ما يعرف بالهيمنة الناعمة – هو ما دفع مدارس التحليل النقدي للخطاب نحو الاهتمام بتحليل الخطاب الإعلامي حيث يعكس ويجسد كل من المجال الإعلامي والخطاب الإعلامي عملية الصراع والهيمنة عبر الإقناع وترتيب وعي الجماهير.

٥. رغم أهمية الأعمال التحليلية للخطاب الإعلامي التي قدمت في إطار مدارس تحليل الخطاب إلا أنها تظل محدودة نسبياً من حيث الكم والنوع، وبالتالي فإن كثيراً من المفاهيم التحليلية التي استخدمت لم تختبر على نطاق واسع، خاصة المفاهيم التي اعتمد عليها فيركلاو والتي لم يستخدمها إلا في تحليل عينات محدودة قام باختيارها بدون توضيح لأسباب ومبررات هذا الاختيار.

من جانب آخر، فإن أغلب دراسات تحليل الخطاب الإعلامي ركزت على خطاب الصحافة المنشورة، ولم تمنح الخطاب الإعلامي في الإذاعة والتليفزيون اهتماماً مماثلاً. وربما يرجع ذلك لصعوبات تتعلق باختيار العينات وتحليل الصوت والصورة. وهنا تجدر الإشارة إلى أهمية بحوث تحليل الخطاب التي اعتمدت على منهجية السيميولوجيا، وتحليل المحادثة في تحليل الصور الفوتوغرافية والأفلام فضلاً عن البرامج الحوارية، ورغم العدد المحدود من هذه الدراسات إلا أن تأثيرها كان عميقاً، بل وأحدثت تحولات مهمة في عملية تحليل الرسائل الإعلامية وفهم تأثيراتها بطريقة مغايرة للطرق والمناهج التقليدية الخاصة التي اعتمدت على تحليل المضمون الكمي (شومان، يونيو ٢٠٠٤).

٦ـ يمكن القول بأن معظم مدارس تحليل الخطاب اعتمدت على عينات صغيرة من المواد الإعلامية، خاصة المواد المصورة والصحف، واقتربت بنفسها نوعًا من التحليل الكيفي، ومن ثم لم تهتم بالمؤشرات الكمية (Curtin, 1996)، بل ركزت على الفهم والتأويل، انطلاقًا من فكرة مهمة عبر عنها ميشيل فوكو ... وتدعو هذه الفكرة إلى ممارسة التحليل وفهم الخطاب من خلال التعرف على القواعد والإجراءات الروتينية الخطابية في كل جزء من الخطاب، وبالتالي يمكن حل مشكلة التعميم المنطقي عن طريق الاستمرار في تحليل الأجزاء الأكثر أهمية في الخطاب (العقد الخطابية والنصوص المركزية) حتى لا يوجد شيء يمكن العثور عليه بواسطة هذا التحليل، ويؤكد ميجر أن تجربته الذاتية في مجال الدراسات التجريبية تشير إلى أنه بعد تحليل عدد قليل من أجزاء الخطاب لا توجد معلومات أو ملاحظات جديدة (Langer, 1998). ولاشك أن اختيار النصوص المركزية التي تسجل الخطاب وتحولاته والاتفاق عليها بين أكثر من باحث، تمثل إشكالية نظرية وإجرائية شائكة يدور حولها نقاش واسع بين الباحثين.

لكن يبدو كان فان دايك الوحيد الذي خرج في محاولاته البحثية التطبيقية عن التوجه السابق، وقام بتحليل عينات كبيرة نسبيًا ركز فيها على الأفكار العامة والبنيات الكلية للنصوص، وحاول من خلال تحليلها التوصل إلى مؤشرات كمية وكيفية. ويرى الباحث أن محاولات فان دايك أقرب إلى المناهج الإجرائية التطبيقية كما أنها تحاول دون التعمق في دراسة النصوص الإعلامية وسبر غور الخطاب الإعلامي الذي يختلف عن بقية أنواع الخطاب في المجتمع من عدة أوجه لعل أهمها: عمليات وظروف الإنتاج، والتوزيع وعمليات الاستقبال أو التلقي، والتي تتوقف بدورها على طبيعة الخطاب الإعلامي، وهل هو مقروء أم مسموع أم مرئي (Fairclough, 1995)

٧ـ ظهرت كثير من مناهج وأدوات تحليل الخطاب لذلك فإن الباحثين الجدد في مجال تحليل الخطاب يصابون بالدهشة وربما الحيرة من هذا التنوع والتعدد

ويعرف من هنا قيام فيليس ورافين Philips & Raven بتحليل سلسلة من الدراسات التطبيقية التي استخدمت تحليل الخطاب، فوجدا أنه من الممكن تصنيف تلك الدراسات وفقًا لبعدين نظريين أساسيين، البعد الأول: يهتم بالأهمية النسبية للنص في مقابل السياق داخل البحث، والبعد الثاني: يرتبط بمدى تركيز البحث على ديناميكيات القوة power dynamics - أي الدراسات النقدية - بدرجة أكبر، وذلك مقارنة بالدراسات التي تركز بتفصيل أكبر على اللغة أو جوانب التفسير الاجتماعي، أي الدراسات التي تتبنى النزعة التفسيرية. والثابت أن الدراسات النقدية أكثر انتشارًا بين مداخل تحليل الخطاب، بما يتيحه الدور البارز والرائد لأعمال ميشيل فوكو، والتي أثرت في مدارس التحليل النحوي والسيميولوجي وتحليل المحادثة، فضلاً عن مدارس تحليل الخطاب.

لكن ثمة دراسات أخرى اهتمت بثلاثة أبعاد في التحليل هي: السياق والنص والخطاب، وفي هذا النوع من الأبحاث يقوم الباحثون بتضمين "النص" و"السياق" في دراساتهم مع اعتبار "الخطاب" الخبرة التكوينية للسياقات المحلية والعامة الاجتماعية والثقافية "للنص"، وكذلك اعتبار الخطاب مكونًا من العديد من النصوص في سياق تاريخي واجتماعي معين.

والواقع أنه عندما يشرع الباحثون في إجراء البحوث التطبيقية يجدون أنفسهم مضطرين للاختيار من بين البدائل المتاحة لهم، فلا يستطيع أي باحث أن يدرس كل شيء، وحين يكون السياق المحض للنصوص محل الدراسة مهمًا ذاتيًا، يمكن تضمين السياق الاجتماعي الأوسع نطاقًا بدرجة أو بأخرى، وفقًا لاهتمامات الباحث ومنطلقاته النظرية ودوافعه.

وقد تركز بعض الدراسات على التحليل الدقيق micro analysis لبعض النصوص - أي التحليل الذي يكتفي بدراسة بعض النصوص منفردة، بينما تتجه دراسات أخرى لتغطية أوسع نطاقًا للعناصر الخطابية في سياقات معينة غير أن بعض الدراسات اتجهت إلى الجمع بين النمطين.

وفي إطار التوجه نحو الجمع التركيبي اعتماداً على منهج تكاملي بين مدارس تحليل الخطاب ظهرت أعمال بحثية مهمة - ابرزها أعمال فيركلاف جمعت بين المناهج التفسيرية الاجتماعية التي تتيح مستكشافات دقيقة عن طريقة تفسير واقع اجتماعي معين، وبين المناهج النقدية التي تركز بشكل أكثر صراحة على ديناميكيات القوة والمعرفة والأيديولوجيا التي تحيط بالعمليات الخطابية. ولكن تجدر الإشارة إلى أن التمييز هنا نسبي لأن الدراسات التفسيرية الجيدة تهتم أيضاً بقضايا القوة والمعرفة، كما تتضمن الدراسات النقدية اهتماماً بعمليات التفسير الاجتماعي.

ويخلص نلسن فيليبس وسينثيا هاردي إلى القول بوجود أربعة مناظير رئيسية مستخدمة في الدراسات المتخصصة وهي: التحليل اللغوي الاجتماعي والبنيوية التأويلية وتحليل الخطاب النقدي والتحليل اللغوي النقدي. مع ملاحظة التأكيد على أن الأبعاد الأربعة هي أطر عامة وليست فئات بسيطة أو مجموعات منفصلة، بل تمثل الأنماط المثالية بمفهوم ويبر Weber، فليس بالضرورة أن تقع كل البحوث في فئة معينة تحديداً، ولكن هذا التصنيف إلى أربع فئات عامة يسمح بتعيين أساليب مختلفة للبحث التنظيمي، مما يساعد على فهم وتصنيف البحوث والدراسات في مجال تحليل الخطاب.

٨- مهما يكن من أمر الاختلافات أو الاختلافات بين مدارس تحليل الخطاب فإن منهجية تحليل الخطاب الإعلامي باتت تقليداً علمياً معترفاً به ومتنامياً، ويكتسب كل يوم أرضاً جديدة رغم عدم وضوح مفهوم الخطاب وتضارب واختلاف المفاهيم والأطر النظرية الخاصة بتحليل الخطاب. لكنه بشكل عام يعتمد على عدة علوم ومناهج اجتماعية، كما يمزج بين اسهامات حديثة ونقدية في مجال اللغويات واللغويات التطبيقية والنقد الأدبي، كما يزاوج بين التحليل النحوي والسيميولوجي، ويستفيد من الاتجاهات الحديثة في التأويل، والتيارات النقدية في علم الاجتماع والانثروبولوجي، والدراسات الثقافية، وعلم النفس الاجتماعي.

من جانب آخر، فإن منهج تحليل الخطاب يمنح الخطاب الإعلامي أهمية خاصة،

وفي الوقت نفسه برغم خصوصيته من رؤية تحدد أشكاله ومضامينه، سواء كان مكتوبًا أو مذاعًا أو مرئيًا، بالإضافة إلى علاقته الجدلية بالمجتمع فهو لا يعكس الواقع أو علاقات القوة والهيمنة في المجتمع فقط، وإنما يساهم في بنائه عبر عمليات إدراك الواقع وتحديد الهويات الاجتماعية، وتكوين الخطاب واختيار المفردات، وكذلك عمليات التناص بين الخطابات والتفاوض بينها، والتفاوض بين منتج الخطاب والجمهور الذي يستقبله، كي يلعب الخطاب الإعلامي دورًا مؤثرًا في بناء العلاقات الاجتماعية وتحديد الهويات الاجتماعية والثقافية، فهو عملية مستمرة ومحصلة تتفاعل فيها وعبرها قوى ومتغيرات محلية ودولية تعكس أوضاع المجتمع وثقافته والمرحلة التاريخية التي يعيشها.

٩- تعكس مدارس تحليل الخطاب في العالم حالة من عدم الاتفاق والتحدد حول مفهوم الخطاب، وهل هو نظرية أو منهج، كما تعكس تعددًا في استخدام أدوات وطرق تحليل الخطاب، وحدود هذا التحليل، ومثل هذه الحالة لا تعكسها الدراسات العربية التي استخدمت تحليل الخطاب. فثمة اختلافات وذلك من دون جدل أو نقاش علمي، كما أن أغلب هذه الاختلافات تنحصر في الأسس النظرية والمعرفية فضلاً عن محدودية الممارسات والتطبيقات العملية التي يمكن الاعتماد عليها في إثراء الجدل والنقاش العلمي. وربما يمكن تفسير ذلك في أن مستوى وتنوع الدراسات العربية في مجال تحليل الخطاب الإعلامي لم ترتبط بوضوح بمدارس تحليل الخطاب الأوربية، ولم تتفاعل معها أو حتى تنقل عنها بوضوح، بمعنى أنها كانت مجرد ظلال غير محددة الأبعاد لبعض تلك المدارس.

وربما يمكن تفسير ذلك في ضوء حداثة الدراسات والبحوث الإعلامية العربية في مجال تحليل الخطاب. كما تعكسها حالة مصر التي تعد من أوائل الدول العربية التي أنشأت معهدًا للصحافة ثم كلية مستقلة للإعلام عام ١٩٧٤، ولم تُعرف أو تُدرس منهجية تحليل الخطاب إلا في نهاية الثمانينيات ومطلع التسعينيات، حيث سادت منهجية تحليل المضمون الكمي التقليدي، وأصبح جزءًا من تقاليد المؤسسة

العلمية في مصر هي آخر ظهور واستخدام منهجية تحليل الخطاب في الدراسات الإعلامية، وخاصة التي اعتبرت خروجاً عن التقاليد العلمية السائدة، ومحاولة لتجريب منهجية غامضة غير محددة نظرياً ومنهجياً ولا يوجد حولها اتفاق، لكن بفضل تشجيع عدد من أساتذة الإعلام وجهود عدد محدود من الباحثين الشباب ظهر عدد من أطروحات الماجستير والدكتوراه تتبنى منهجية تحليل الخطاب.

ورغم قلة عدد دراسات تحليل الخطاب الإعلامي في مصر واقتصارها على الخطاب الصحفي إلا أنها نجحت في كسب مشروعية الوجود، وباتت نهجاً معترفاً به، حيث أصبح من المقبول - في ضوء التقاليد العلمية المعمول بها في الجامعات المصرية ومجلات العلمية الدورية - إجراء ونشر دراسات تحليل الخطاب الإعلامي كما أن هناك أعداداً متزايدة من أطروحات الماجستير والدكتوراه قيد الإعداد تتبنى منهجية تحليل الخطاب الإعلامي المطبوع والمسموع والمرئي.

٤- يمكن القول بأن معظم دراسات تحليل الخطاب الإعلامي التي ظهرت في مصر قد غلب عليها تأصيل محدود لبعض المفاهيم والأطر النظرية من بعض مدارس تحليل الخطاب الأوربية، بينما لم تتعرف على مدارس أخرى مهمة مثل المدرسة الألمانية ومساهمات باحثي الدول الاسكندنافية، كما لم تستفد من الأعمال التأسيسية لميشيل فوكو ربما لأنه لم يكتب بشكل مباشر عن مجال الإعلام والخطاب الإعلامي - الأمر الذي أدى إلى ضعف ومحدودية الأطر النظرية والمنهجية التي اعتمدت عليها الدراسات العربية في مجال تحليل الخطاب الإعلامي، وافتقارها إلى العمق النظري والتعرف. وقد أدى هذا الضعف إلى الوقوع في مشكلات منهجية ومنهجية وإجرائية مثل غموض مفهوم الخطاب، واعتماد بعض الدراسات على منهجية الدراسات اللغوية فقط، ووقوع دراسات أخرى في نوع من الخلط الغريب بين تحليل الخطاب وتحليل المضمون الكمي التقليدي، واستخدام النوعين معاً وبطريقة مصطنعة وغير مبررة في بعض الدراسات. بالإضافة إلى استخدام عينات

كبيرة من النصوص الصحفية تغطي سنوات طويلة، ثم أتقن كاهن تلك الدراسات وتسلم أحيانًا من أنماط من التحليل السطحي.

وعلى سبيل المثال، فإن دراسة شومان (شومان ١٩٩٠) التي حاول فيها، ولأول مرة، تجاوز التحليل اللغوي والدلالي للخطاب الصحفي، جمعت بين وعي معرفي ومنهجي بين سيريه ميشيل فوكو ورنالويليه بول ريكور ومساهمات دومينيك مانجينو Maingueneau رغم ما بينهم من خلافات عميقة، وقد أدى هذا الخلط والاضطراب النظري والمنهجي إلى تحليل عينة زمنية طويلة وعدد كبير من الصحف والمجلات باستخدام مؤشرات كمية وكيفية لم تساعد في تعميق التحليل والتوصل إلى استخلاصات هامة (انظر نماذج من هذا التحليل في الفصل الثالث).

وربما تكمن مشكلة اختيار الدراسات العربية لعينات كبيرة من النصوص إلى التأثر بالمنهجية الوضعية السلوكية التي تفرض مساواة بين أهمية النصوص وإمكانية اختيار عينات ممثلة، وهو ما ترفضه أغلب مدارس تحليل الخطاب، حيث إن النصوص لا تتساوى في الأهمية، أي أن هناك نصوصًا مركزية أو حاكمة يُطلق عليها البعض (العقد الخطابية)؛ فضلاً عن ضرورة فهم واستيعاب التناص والتشابك والتكرار بين النصوص والذي قد لا يضيف جديدًا لتحليل الخطاب، لذلك فمن المهم تحديد العقد والتشكيلات الخطابية والممارسات غير الخطابية والتركيز عليها في التحليل بغض النظر عن كم النصوص التي ستخضع للتحليل، ولاشك أن اختيار النصوص المركزية التي تسجل الخطاب، وتحولاته هي إشكالية نظرية وإجرائية يدور حولها نقاش واسع من الضروري أن يتابعه الباحثون العرب في مجال تحليل الخطاب، ويشاركون فيه نظريًا وعمليًا.

أيضًا ربما يكون من المهم ليس فقط الانفتاح والتواصل مع مدارس تحليل الخطاب الأوروبية بل الانفتاح والتواصل مع الدراسات العربية التي أجريت في المغرب العربي في مجال تحليل الخطاب عامة والخطاب الإعلامي خاصة، والتي يبدو أنها تناولت موضوعات بالغة الأهمية، كما تابعت بوعي وحس نقدي مدارس

تحليل الخطاب الأخرى خاصة المدرسة الفرنسية. لكن العقبة التي تحول دون تعميم الاستفادة من هذه الدراسات هي النطاق المعرفي، تكمن في أن معظمها كتب باللغة الفرنسية. من هنا أقترح ترجمة ونشر بعض من هذه الدراسات تدعيماً للتواصل والحوار العربي - العربي في مجال تحليل الخطاب الإعلامي فضلاً عن ترجمة إسهامات المدارس الفرنسية والألمانية والاسكندنافية في مجال تحليل الخطاب الإعلامي. وأعتقد أن دعوتي للترجمة لا يقصد منها النقل أو الاقتباس المباشر، بل تهدف إلى التعرف والدراسة ثم التفاعل الواعي مع هذه الطروس، حيث إن الإطار الثقافي، وخصوصيته المجتمعية هي التي تحدد شكل الخطاب ومستوياته المختلفة. من هنا كانت دعوتي إلى ترجمة أعمال الباحثين العرب في المغرب العربي في مجال تحليل الخطاب بحكم الأثنين المشترك للغة والثقافة العربية.

ويبقى بعد ذلك كله مهمة ممارسة الواعية لتحليل الخطاب الإعلامي، تلك الممارسة التي تسمح بل ربما تشترط وكي تعطف كل مدارس واتجاهات تحليل الخطاب التنوع والتأليف التركيبي وفق منهج تكامل يراعي الخصوصية الثقافية والمجتمعية.

* * *

المراجع والمصادر

أولا - المراجع العربية

١ - أحمد أمين، توحيد الثقافة بين الأقطار العربية، الهلال، عدد يناير، ١٩٣٩

٢ - أحمد لطفي السيد، جبهة من الشعوب العربية وهل هي ضرورة؟، الهلال، عدد ديسمبر ١٩٣٨

٣ - أحمد يوسف، السيميوريس وتخوم النقد، ورقة مقدمة لمؤتمر الكويت الدولي، تحليل الخطاب، الكويت، ٢٦ـ٢٨ مارس ٢٠٠٥

٤ - أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة سعيد بنجراد، بيروت - الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٤

٥ - محيي الدين بركات، جبهة من الشعوب العربية هل هي ضرورة؟، الهلال، عدد ديسمبر، ١٩٣٨

٦ - بول ريكور، نظرية التأويل، الخطاب وفائض المعنى، ترجمة سعيد الغانمي، بيروت - الدار البيضاء، ٢٠٠٣

٧ - بيتر بروكر، الحداثة وما بعد الحداثة، ترجمة عبد الوهاب علوب، أبو ظبي، منشورات المجمع الثقافي، ١٩٩٥

٨ - توني بينكني، طرائق الحداثة ضد المتوائمين الجدد، المرجع السابق

٩ - جوردن مارشال، موسوعة علم الاجتماع، المجلد الأول، ترجمة محمد محمود الجوهري وآخرين، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠

١٠ - حديث مع الأمير عمر طوسون، الهلال، عدد يونيو ١٩٣٠

١١ - ريموند ويليامز، طرائق الحداثة ضد المتوائمين الجدد، ترجمة فاروق عبد القادر، الكويت، عالم المعرفة، ١٩٩٩

١٢ - زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، سلسلة مشكلات فلسفية، عدد (٨)، القاهرة، مكتبة مصر، د. ت

١٣ - الزواوي بغورة، تحليل الخطاب من الوجهتين الوصفية والتاريخية، ورقة

مقدمة لمؤتمر الكويت الدولي لتحليل الخطاب، الكويت، ٢٦ـ ٢٨ مارس ٢٠٠٥

١٤- الزواوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠

١٥- سلامه موسى، المصريون امه عربيه، الهلال، عدد ديسمبر ١٩٢٨

١٦- سلامه موسى، ثقافة مصر بين الغرب، الهلال، عدد فبراير ١٩٢٩

١٧- سلامه موسى، قل لي: هل نحن أقرب إلى الشرق أم الغرب؟، الهلال، عدد يوليو ١٩٢٧

١٨- السيد المتعادي، السيميوطيقا: علاقتها بالفلسفة والعلم عند كارناب، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم الفكر، يوليو - سبتمبر ٢٠٠٢

١٩- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، الكويت، عالم المعرفة، ١٩٩٢

٢٠- صلاح فضل، علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥

٢١- طلعت حرب، التعاون الاقتصادي بين الأمم العربيه، الهلال، عدد نوفمبر ١٩٣٩

٢٢- طه حسين، حضارتنا القادمه فرعونيه أم عربيه أم غربيه؟، الهلال، عدد أبريل ١٩٣٠

٢٣- عبد الرحمن شهبندر، مستقبل العالم العربي، الهلال، عدد نوفمبر ١٩٣٩

٢٤- عبد الرحمن عزام، الإمبراطوريه العربيه وهل آن لها أن تتحقق، الهلال، عدد فبراير ١٩٣٤

٢٥- عبد الفتاح يحيى، وزير خارجيه مصر، الشعوب العربية والشرقية، كيف تتحد وكيف تتعارف؟، الهلال، عدد يناير ١٩٣٦

٢٦- عبد الوهاب جعفر، البنيوية بين العلم والفلسفه عند ميشيل فوكو، القاهرة، دار المعارف، بدون تاريخ

٢٧- علي إبراهيم، حضارتنا القادمه: فرعونية أم عربيه أم غربيه؟، الهلال، عدد أبريل ١٩٣٠

٢٨ علي إبراهيم وهدى شعراوي ، أحمد شوقي ومحمد سرهنك، حضارتنا القادمة فرعونية أم عربية؟، الهلال، عدد أبريل، ١٩٣٠

٢٩- علي بن شويل القرني، الخطاب الإعلامي العربي، أبحاث مصرية بحوث الإعلام كلية الإعلام. جامعة القاهرة، ١٩٩٧

٣٠ علي عبد الرازق، حضارتنا القادمة فرعونية أم عربية؟، الهلال عدد أبريل ١٩٣١

٣١ عواطف عبد الرحمن ،نادية سالم، ليلى عبد المجيد تحليل المضمون في الدراسات الإعلامية، القاهرة العربي للنشر والتوزيع، ٩٨٣

٣٢ كلود ليفي شتراوس مقالات في الأناسة ترجمة حسن قبيسي، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر، ١٩٨٣

٣٣ مارلين نصر، التطور القومي في فكر جمال عبد الناصر (١٩٥٢ ٩٧) دراسة في علم المفردات والدلالة، القاهرة دار مستقبل العربي، ١٩٨٣

٣٤- محمد أحمد يونس الخطاب الديني في الصحف المصرية خلال الفترة ما بين عامي ١٨٨٢ ، ١٩، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الإعلام جامعة القاهرة، ٢٠٠٠

٣٥- محمد العشماوي، توحيد الثقافة بين الأقطار العربية هل هو أهم الوسائل لتقدم نهضة الشرق العربي؟ الهلال، عدد يناير، ٩٣٩

٣٦ محمد العشماوي، طه حسين، احمد امين، توحيد الثقافة بين الأقطار العربية هل هو أهم الوسائل لتقدم نهضة الشرق العربي؟ الهلال ، عدد يناير ٩٣٩

٣٧ محمد حافظ دياب، سيد قطب الخطاب والأيديولوجيا، الطبعة الأولى، القاهرة، دار الثقافة الجديدة، ١٩٨٧

٣٨ محمد حسام الدين إسماعيل، التغطية الصحفية العربية لنشوء العالم الإسلامي خلال عقد التسعينيات، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الإعلام، جامعة القاهرة، ٢٠٠١

٣٩ محمد حسين هيكل الاتحاد الثقافي بين الأمم العربية، الهلال، عدد أبريل، ٩٣٩

٤٠- محمد شومان، تحليل الخطاب في الدراسات الإعلامية، ورقة مقدمة لمؤتمر الكويت الدولي لتحليل الخطاب ٢٦-٢٨ مارس، ٢٠٠٥

٤١- محمد شومان، مشاركة السياسية للمرأة في خطاب الكاريكاتور في الصحافة المصرية، المجلة العلمية لكلية الآداب، جامعة الزقازيق، يونيو، ٢٠٠٤

٤٢- محمد شومان، إشكاليات تحليل الخطاب في الدراسات الإعلامية العربية الدراسات المصرية نموذجا، المجلة العلمية لكلية الآداب، جامعة المنيا، أبريل، ٢٠٠٤

٤٣- محمد شومان، تطور فكرة القومية العربية في الصحافة المصرية (١٩٢٤-١٩٥٢) رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الإعلام، جامعة القاهرة، ١٩٩٠

٤٤- محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٢

٤٥- محمد عبد الحفيظ الباز، موقف الصحافة المصرية من الثورة العرابية في الفترة من ١٨٧٧-١٨٨٢، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الإعلام، جامعة القاهرة، ٢٠٠٣

٤٦- محمد غرافي، مدخل في السميولوجيا البصرية، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم الفكر، يوليو-سبتمبر ٢٠٠٢

٤٧- محمود إبراهيم خليل، القرائية لخبر الصحفي اللغوية بالتطبيق على الخبر الصحفي في جريدة الأهرام والجمهورية خلال عام ١٩٧٨، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الإعلام، جامعة القاهرة، ١٩٨٩

٤٨- محمود إبراهيم خليل، التطور الأسلوبي والدلالي للغة الصحافة اليومية في مصر من ١٩٦٠-١٩٨٠، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الإعلام، جامعة القاهرة، ١٩٩٣

٤٩- محمود عزمي، حيلة من محبوب عربية ضرورة خلقها وكيفية ذلك، الهلال، عدد نوفمبر، ١٩٣٨

٥٠- محمود عزمي، أيهما نقدم الرابطة الشرقية أم الإسلامية أم العربية؟، الهلال، عدد نوفمبر، ١٩٣٣

٥٠ مصطفى سويف وآخرون، صورة أمريكا كما تقدمها وسائل الإعلام، دراسة في تحليل المضمون بالصحافة المسائية، القاهرة، المركز القومي للبحوث الاجتماعية، ١٩٧٧

٥٢ المعجم العربي الأساسي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٩

٥٣ - مكرم عبيد، المصريون عرب، الهلال، عدد إبريل، ١٩٣٩

٥٤ منصور فهمي، حضارتنا القادمة فرعونية أم عربية أم غربية؟، الهلال، عدد أبريل ١٩٣٩

٥٥ ميشيل فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، بيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٨٧

٥٦ موري السعيد، الشعوب العربية والسرفية، كيف تتحد؟ وكيف تتعارف؟ الهلال، عدد مايو، ١٩٣

٥٧ هشام عطية عبد المقصود محمد، تأثير السياسة الخارجية للدولة في المعالجة الصحفية للشئون الدولية، دراسة مقارنة بالصحافة المصرية خلال الفترة من ١٩٩٠ ـ ١٩٩٢، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الإعلام، جامعة القاهرة، ١٩٩٥

٥٨ هشام عطية عبد المقصود محمد، علاقة النخب السياسية المصرية بالصحافة وتأثيرها في أنماط الأداء الصحفي في التسعينيات، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الإعلام، جامعة القاهرة، ١٩٩٨

٥٩ الهلال، عدد أبريل ١٩٣٩

٦- وائل محمد عارف قنديل، صورة مصر في الخطاب الصحفي لوكالات الأنباء العربية العاملة في مصر خلال الفترة من ١٩٩٠ ـ ١٩٩٦، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الإعلام، جامعة القاهرة، ٢٠٠٢

ثانيًا: المراجع الأجنبية

- Alistair Penny cook. critical applied linguistics in A Davies and C Elder eds, Handbook of applied linguistics Oxford: Blackwell, 2002.
2- Andrew Tolson, mediations text and discourse in Media, Studies Edward Arnold, London. 1996

3- Brett Dellinger. Critical Analysis Discourse www.sociodel. tri- pod.com, 995.

4- Coates Jennifer,ed. Language and Gender. A reader. Malden,MA. Blackwell. 998

5 D Maingueneau. Initiation aux Methodes de L Analyse du Discours (Paris. Hachette. 1976)

6- Ellen Barton, Resources for discourse analysis in composition studies. V36,i4.2002

7- Fairclough, Discourse social theory and social research the discourse of welfare. journal of sociolinguistics,4.2000

8- Fishman Jessica. Documenting Death. Photo journalism and spectacles of the morbid in the tabloid and Elite Newspaper. A Dissertation presented to the faculties of the university of Penn- sylvania in partial fulfillment of the Requirements for the degree of doctor of philosophy 2001

9- Gaye Tuchman,.Making news,New York, Free Press, 987

10- Habermas Jürgen. The Structural Transformation of the Public Sphere. An Inquiry into a Category of Bourgeois Society. Trans. Thomas Burger. 9th. Cambridge: MIT Press. 1989

11 Hall. Stuart. Culture, the Media and the 'Ideological Effect'. In James Curran, Michael Gurevitch & Janet Woollacott (Eds.): Mass Communication and Society. London: Edward Arnold 1977

12- Halliday M.A.K. Language as Social Semiotic. London. Arnold.1978

13- James W. Tankard, mapping discourse analysis and applications for news studies, 1994,http://list.msu.edu (Accessed 2-10-2004)

14 K. Mannheim, Essays on Sociology of Knowledge. London, 952.

15- K. Mannheim. Ideology and Utopia. Translated by Louis Wirth and Edouard Shils London, 1948

16 Kevin Hawley. Textually mapping newspaper discourse, http:// list.msu.edu 999 (Accessed 2-10-2004)

17- Kress, Gunter and Hodge Robert. Language as ideology. London, Routledge and Kegan Paul. 979

18- Marianne Jorgensen & Louise Phillips. Discourse Analysis as theory and method. Sage Publications. London, 2002

19- Nelson Phillips and Cynthia Hardy, Qualitative Research Methods Sage

Publications, London. 2002.

20- Norman fairclough, Media Discourse. London. Edward Arnold.1995

21- Patricia A. Curtin. Textual analysis in mass communication studies Theory and Methodology. 1996. http// tat.uma.edu. Accessed 19- 7- 2004)

22- Paul Riccew. Du Texte a l'action, Essais D'hermeneutique -2. Paris Editions du Seuil, 1983

23- Paul Ten Have. Methodological issues in C.A. in Of Amsterdam. 2005

24- Roger Bromley.Cultural Studies in Britain. In A cultural Studies Reader History. Theory. Practice. ed. Jessica Munas and Gita Rajan. London and New York: Longman. 1995.

25- Roy Langer. the concept of discourse analysis of complex communication events. 1998, http://ep.lib.cbs.dk. Accessed 12-9-2004).

26- Ruth Wodak, critical discourse analysis at the end of the 20[th] century in Research on Language and Social interaction.32 1999

27- Ruth Wodak and Micael Meyer. Methods of Critical Discourse Analysis. London, SAGE publications. 2001

28- Scannel. Radio. Television and modern life, Oxford, Blackwell 1996.

29- Tompkins, Phillip. k. Principles of rigor for assessing evidence in qualitative communication research. western journal of communication. 1994

30- Van Dijk. ed. Introduction,in Discourse as Structure and Process. A Multidisciplinary Introduction. Vol 1. London.sage. 1997

31- Van Dijk. Critical Discourse Analysis.1998. www.hum.uva.nl/teun/cda.htm Accessed 12- 2005).

32- Vagle, W. & Wikberg, K. (eds. "What Do Members of Discourse Communities Have in Common?" New Directions in Nordic Text Linguistics and Discourse Analysis: Methodological Issues. Oslo: Novus Press. 1996.

33- www.studbengrad.com.

* * *

صدر للمؤلف

١- الاحتلال الأمريكي للعراق، صوره ومصادره، مؤلف مشارك، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥.

٢- الاتصال الجماهيري، اتجاهات نظرية ومنهجية، بالاشتراك مع د. فاطمة القليني، القاهرة، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤.

٣- الإعلام و الأزمات (مدخل نظري وممارسات عملية)، القاهرة، دار الكتب العلمية للنشر و التوزيع، ٢٠٠٢.

٤- الدعاية والإعلان، بالاشتراك مع د. فاطمة القليني، القاهرة، مطبعة العمرانية للأوفست، القاهرة، ٢٠٠١.

٥- العولمة ومستقبل الإعلام العربي، القاهرة – الخرطوم، مركز الدراسات السودانية، ٢٠٠٠.

٦- دراسات في تاريخ الصحافة المصرية، بالاشتراك مع د. محمد سعد، القاهرة، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، ١٩٩٩.

٧- إشكاليات قياس الرأي العام، القاهرة، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، ١٩٩٩.

٨- قيادات المرأة العاملة، الأوضاع الراهنة وآفاق المستقبل، القاهرة، جمعية تنمية الديمقراطية، ١٩٩٩.

٩- تقرير الأزمات والكوارث في مصر المحروسة، بالاشتراك مع د. رشاد الحملاوي، القاهرة، وحدة بحوث الأزمات والكوارث، كلية التجارة – جامعة عين شمس، ١٩٩٩.

١٠ـ الإعلام وجناح الأحداث،الرياض، مركز بحوث الجريمة بالمملكة العربية السعودية، ١٩٩٨.

١١ـ دور الإعلام فى تكوين الرأى العام، حرب الخليج نموذجا، القاهرة، المنتدى العربى للدراسات والنشر، ١٩٩٨.

١٢ـ تقرير الأزمات والكوارث فى مصر المحروسة، بالاشتراك مع د. محمد رشاد الحملاوى، القاهرة، وحدة بحوث الأزمات والكوارث، كلية التجارة - جامعة عين شمس، ١٩٩٨.

١٣ـ "العرب والغرب" مقاربة ثقافية، مالطا - بيروت، مركز دراسات العالم الإسلامى، ١٩٩٢.

١٤ـ إشكاليات الفكر الإسلامى المعاصر، مؤلف مشارك، مركز دراسات العربى الإسلامى، مالطا- بيروت، ١٩٩١.

* * *



